ترتيب سور القرآن الكريم وفق زمن نزولها
في فكر الجابري
عرض وتحليل ونقد

✍ إعداد الدكتور

صبري منصور عبد العزيز صيام

أستاذ مساعد التفسير وعلوم القرآن الكريم

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين- القاهرة

بجامعتي الأزهر وتبوك

ترتيب سور القرآن الكريم وفق زمن نزولها في فكر الجابري عرض وتحليل ونقد

صبري منصور عبد العزيز صيام

قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين ، بجامعة الأزهر ، القاهرة ، مصر.

البريد الإلكتروني: sabrymahmoud.٤@azhar.edu.eg

الملخص :

يدور البحث في فلك المحافظة على أصول الدين وثوابته وكاشفا عن أسسه النقلية والعقلية التي قام عليها، وردا على زيغ أصحاب القراءة الحداثية المتهافتة التي تتناقض مع النقل والعقل في آن واحد -وذلك من خلال طرح أحد أعلامها البارزين على الساحة الفكرية، وهو المفكر المغربي الدكتور محمد عابد الجابري، لقضية طالما كثر في الأخذ والرد، وهي قضية ترتيب سور القرآن الكريم ترتيبا متوافقا لزمن نزولها، فهي قضية بدأ الحديث فيها بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو ما أثر عن الإمام علي – رضي الله عنه- أنه جمع مصحفا رتب سوره ترتيبا على زمن نزولها، ولا يزال هذا الطرح إلى يومنا. فجاء البحث كاشفا عن جوانب الحق فيه ومؤيدا لها، وصور الباطل فيه ومفندا شبهاتها من خلال ما قدمه الدكتور الجابري.

الكلمات المفتاحية: ترتيب – سور القرآن- ترتيب توقيفي- ترتيب اجتهادي- النمو الداخلي – الظاهرة القرآنية .

Arranging the Surahs of the Noble Qur'an according to the time of their descent in Al-Jabri's thought. Presentation, analysis and criticism

Sabry Mansour Abdel Aziz Siam
Department of Interpretation and Sciences of the Noble Qur'an , College of Islamic and Arab Studies for Boys , Al-Azhar University, Cair,Egypt.
Email: sabrymahmoud.٤@azhar.edu.eg

Abstract:

Interpretation and Sciences of the Noble Qur'an - University of Tabuk.

The research revolves around the preservation of the fundamentals of religion and its fundamentals, revealing its transmission and mental foundations on which it is based, and in response to the aberration of those who are modern and rude reading that contradicts the transmission and the mind at the same time .And that is through the presentation of one of its prominent flags on the intellectual scene, which is Moroccan thinker Dr. Mohamed Abed Al-Jabri, for a long and abundant issue of give and take, which is the issue of arranging the surahs of the Noble Qur'an in a consistent arrangement for the time of its descent, as it

is an issue that began talking after the death of the Prophet - may God bless him and grant him peace -, and this is what influenced Imam Ali - may God be pleased with him - that he compiled a Qur'an that arranged his surah in order according to the time of its descent, and this offering remains to this day. So the search reveals the aspects of the right to and in support of it, and pictures of falsehood in it and refute its suspicions through what was presented by Dr. Al-Jabri.

keywords: Arrangement - Surahs of the Qur'an - Arrests Arrangement - Ijtihad Arrangement - Inner Growth - Qur'anic Phenomenon - Jabri - Orientalists.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة:

الحمد لله رب العالمين، حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فإن القرآن الكريم كتاب الله المبين، وحبله المتين، ومعجزته الباقية، وشرعته الراشدة، وهو المعين الذي لا ينضب، من تمسك به اهتدى، ومن فرط فيه فقد ضل سواء السبيل.

ولا يزال العلماء ينهلون من فيضه، ويستمدون من عطائه، ويجتهدون في الكشف عن معانيه وأسراره، كلٌّ يدلو بدلوه بما أوتي من سعة في العلم، وتوجهٍ في القصد، فمن أصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجرٌ ما تأهَّل لذلك وأحسن قصداً.

وللقرآن الكريم خصائصه التي لا يشاركه ولا يدانيه فيها غيره من الكتب، سواء أكانت كتبا سماوية أم نصوصا بشرية، فهو النص الرباني المقدس، المحفوظ عن التبديل والتغيير، الجامع بين الإعجاز والتشريع، الباقي بقاء السماوات والأرض.

ولهذا، فإن الموضوعية العلمية تقتضي أن يكون منهج الدراسة والبحث فيه قائما على مراعاة تلك الخصائص.

لكن المدرسة العلمانية –بجميع طوائفها ومختلف انتماءاتها الفكرية– أبت إلا أن تسوي بينه وبين غيره، مما أوقعها في كثير من الأخطاء والخطايا.

والدكتور محمد عابد الجابري –رحمه الله– أحد فلاسفة العصر ومفكريه الذين ينتمون إلى تلك المدرسة، والذين ذاع صيتهم، وعلا صوتهم، وراجت أفكارهم بين أظهر كثير من المعاصرين، قد ختم دراساته الفكرية والفلسفية بولوجه ميدان الدراسات

القرآنية سالكا أكثر المناهج التي تعامل بها مفكرو العالم الغربي ومثقفوه مع الكتاب المقدس، والتي نتج عنها قولهم بتاريخيته، أو تأويلهم إياه تأويلا مفرغا عن مضمونه.

فأردت –والله من وراء القصد– أن أتناول إحدى موضوعاته الفكرية التي طال حديثه فيها، وهو موضوع، وهي قضية "**الترتيب الزمني لنزول الآيات والسور**"، فعرضت وجهة نظره فيها، وما استند إليه من أدلة، مفندا إياها، وكاشفاً ما يترتب عليها من آثار، ملتزما قدر الإمكان الحيدة والموضوعية.

وإنما تناولت ذلك الموضوع دون غيره من الموضوعات العديدة التي طرحها في كتابه "مدخل إلى القرآن"؛ لأنه موضوع مهم في ميدان الدراسات الشريعة، وفي ذات الوقت له خطورته، فهو يتلون بقصد الباحث صوابا وخطأ، وبناءً وهدما.

الدراسات السابقة

لم أجد من تعرض للرد على الدكتور الجابري من الباحثين المتخصصين حول هذا الموضوع، إلا ما كتبه الأستاذ الدكتور محمد عمارة في كتابه "رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم"، والأستاذان: عبد السلام البكاري، والصديق بو علام في كتابهما "الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن"، ولم يكن ما كُتب كافيا في الرد على الدكتور الجابري.

خطة البحث.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث تقسيمه إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

المقدمة: دار الحديث فيها عن أهمية الموضوع، والدراسات السابقة فيه، وخطة البحث.

المبحث الأول: الجابري ومنهجه في تناول القضايا القرآنية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: النشأة الثقافية للجابري، وأثرها في توجهه الفكري.

المطلب الثاني: انحراف الجابري في منهجه في التعامل مع القضايا القرآنية.

المبحث الثاني: ترتيب سور القرآن الكريم وفق زمن نزولها بين القبول والرد.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره في أقوال العلماء.

المطلب الثاني: وجوب المحافظة على ترتيب السور على ما هي عليه في المصحف الشريف.

المطلب الثالث: أبرز من رتب سور القرآن الكريم ترتيبا زمنيا، والهدف منه.

المبحث الثالث: ترتيب الجابري لسور القرآن الكريم.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: موقف الجابري من ترتيب آيات وسور المصحف العثماني.

المطلب الثاني: ترتيب الجابري لآيات القرآن الكريم وسوره.

المطلب الثالث: ترتيب سور القرآن الكريم عند المستشرقين وتأثر الجابري بهم.

الخاتمة: جاءت مشتملة على ما يلي:

١- أهم نتائج البحث.

٢- ثبت بأسماء المصادر والمراجع.

٣- فهرس الموضوعات.

هذا، ولم يكن قصدي أبدا أن أقلل من آراء الدكتور الجابري –رحمه الله– أو أضع من قدره، وإنما كان قصدي إظهار الحق وبيان الصواب بالحجة والبرهان، ولهذا توخيت في بحثي الأمانة العلمية، والتزمت بالحيدة والموضوعية، قدر الطاقة البشرية، ووزنت آراء الجابري بما اتفق عليه العلماء المتخصصون، غير متجنٍ أو متحاملٍ عليه، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

فإذا كنت قد وفقت فمن فضل الله –تعالى– عليَّ وتوفيقه، وإن كانت الأخرى فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء.

واللهَ أسأل أن يكتب لبحثي هذا القبولَ وخير المثوبة في الدنيا والآخر، كما أسأله –جل وعلا– أن يجزي عني والدَيَّ ومشايخي ومن له حق علي خير الجزاء.

﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ ﴾[1].

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١) سورة هود، من الآية: ٨٨.

المبحث الأول

الجابري ومنهجه في تناول القضايا القرآنية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: النشأة الثقافية للجابري، وأثرها في توجهه الفكري.

المطلب الثاني: انحراف الجابري في منهجه في التعامل مع القضايا القرآنية.

المطلب الأول: النشأة الثقافية للجابري، وأثرها في توجهه الفكري.

الأستاذ الدكتور محمد عابد الجابري، مفكر ماركسي، يؤمن بـ"المادية الجدلية"، وبـ"التاريخية الجدلية"، وكان لنشأته الأولية في المدارس الفرنسية، أثر في اعتناقه للفكر الماركسي.

فقد ولد الجابري سنة ١٩٣٥م، في مدينة "فجيج" التابعة لمحافظ "وجدة" بالجنوب الشرقي من المغرب العربي، حيث كان الفرنسيون يبسطون أيديهم ويحكمون سيطرتهم عليها.

ولا يخفى ما كان للاستعمار من أهداف سياسية واقتصادية، يبدأ تحقيقها من فرض ثقافة المستعمِر على البلاد، ولهذا أنشأ الفرنسيون المدارس الفرنسية الخاضعة خضوعا كاملا لتوجيههم، فالتحق الجابري بإحدى مدارسهم، وهي مدرسة "ليكول" الابتدائية -بعد أن بدأ رحلته التعليمية بالمسيّد (الكُتَّاب)- وكان من نجباء تلك المدرسة، وكانت مدة الدراسة فيها عامين.

وعدَّ الجابري التحاقه بتلك المدرسة انفتاحاً من أسرته على الحياة العصرية[١]، حيث أُعجب بنظام التعليم فيها مقارنة بنظام التعليم في المسيّد، وعده امتدادا لنظام سلطة الحاكم الفرنسي[٢]، كما أنه اعتبر الاحتلال الفرنسي لمدينة فجيج بداية للانفتاح التدريجي لها على العالم الحديث[٣].

ثم التحق الجابري بمدرسة النهضة المحمدية التي أنشأتها الحركة الوطنية كمدرسة عصرية بديلة عن التعليم الفرنسي، وبعد أن حصل الجابري على الابتدائية التحق بالقسم التكميلي بالمدرسة، وعد دراسته فيها مرحلة تأسيسية في حياته الثقافية،

(١) حفريات في الذاكرة من بعيد للدكتور محمد عابد الجابري ص(٥٣).
(٢) المرجع السابق ص(٥٢).
(٣) المرجع السابق ص(٩٦).

وبالتحديد على مستوى التعامل مع النصوص التراثية؛ يعني التراث الإسلامي، فكانت نافذة اطلاعه وبناء علاقة الأُلفة بينه وبين التراث[١]، **لكن الدراسة فيها لم تكن منتظمة لعدم وجود الأساتذة[٢]، مما ألجأه إلى التعليم الذاتي والاطلاع الشخصي على كتب التراث[٣]**.

ثم سافر إلى وجدة مع أبيه بعد أن نفاه الاحتلال الفرنسي إليها، فالتحق فيها بالمدرسة الفرنسية صباحاً، وبمدرسة التهذيب العربية التي أنشأتها الحركة الوطنية مساءً، واستمر في الدراسة فيها عاما، وقد أعجب بتلك المدرسة؛ أي: مدرسة التهذيب، التي كان مديرها جزائريا متعاطفا مع الحركة الوطنية، وكان يعمل جنديا في الجيش الفرنسي من قبلُ، فاتسم نظام الدراسة فيها بالانضباط، كما اتسم مدرسوها بالعصرية في منهجهم والحداثة في تفكيرهم[٤].

ولم يكتب لهذه المدارس الوطنية الانتشار أو استمرار الدراسة فيها بسبب ضغوط الاستعمار وتضييقه على القائمين عليها، فاضطر إلى السفر إلى الدار البيضاء ليواصل دراسته للمرحلة الإعدادية والثانوية، وما لبثت أن أغلقت هذه المدارس بسبب ضغوط الاستعمار[٥]، فواصل دراسته منزلياً، ليتهيأ إلى دخول الاختبار فاجتاز نهاية العام امتحان الشهادة الثانوية (الإعدادية)، والدبلوم الأول في الترجمة[٦]، ثم تهيأ لامتحان البكالوريا معتمدا على نفسه، متخذا من الكتب الفرنسية أستاذا له ومرجعا، فحصل عليها عام ١٩٥٧م[٧]، ومنح بعثة للتعليم الجامعي في دمشق إلا أنه لم يقض فيها إلا عاما واحد، ليلتحق بكلية الآداب بالرباط، فتخرج من قسم الفلسفة عام ١٩٦٢م[٨].

كانت هذه أبرز محطات الدكتور الجابري التعليمية التي كان لها أبرز الأثر في توجهه الفكري.

---

(١) حفريات في الذاكرة من بعيد ص(١٢٦).
(٢) المرجع السابق ص(١٢٦).
(٣) المرجع السابق ص(١٢٧).
(٤) المرجع السابق ص(١٢٨).
(٥) المرجع السابق ص(١٤٣).
(٦) المرجع السابق ص(١٤٣).
(٧) المرجع السابق ص(١٤٩).
(٨) المرجع السابق ص(١٧٦).

والملاحظ أن اطلاعه على التراث الإسلامي وقراءته له شابها كثير من اللغط، فقد التحق بمدارس النهضة المحمدية التي وجدت مضايقات على القائمين عليها من الاحتلال الغربي الذي يعادي كل ما يمت إلى الإسلام، فما لبثت تلك المدارس أُن أغلقت مما اضطره أن يكون عصاميا.

وأبجديات البحث في العلوم الإسلامية والاطلاع عليها وربط جزئياتها برباط كليٍّ منبثقٍ من القرآن الكريم هو التلقي عن مشايخ ربانيين متقنين، فقد ورثنا عن مشايخنا: أن "**من كان شيخه كتابه فخطؤه أكثر من صوابه**"، وأن "**لا تأخذ القرآن عن مصحفي، ولا العلم عن صحفي**".

وفي ذلك يقول الإمام أبو عمرو الداني:

والعلمَ لا تأخُذْه عن صُحُفيّ * * * ولا حروفَ الذِّكرِ عن كُتُبيِّ[1]

ولما كان الدكتور الجابري قليل البضاعة من العلوم الشرعية، فقد انعكس أثر ذلك سلبيا على موقفه منها، فهو يرى أن التراث العربي الإسلامي الذي قام على النصوص اللغوية والشرعية قد ورَّث العقل العربي جموداً فكريا لا يرجى معه تقدم حضاري[2]، مما يجب تجاوز هذا التراث وطرحه، فيقول بما لا مواربة فيه: «كيف نتحرر من سلطة التراث علينا؟

إن مهمة المنهج الذي نقترحه هنا. إنه المنهج التحليلي؛ بمعنى تحليل البنية.... هذا النوع من التحليل هو ما أسميه بـ"التفكيك"؛ تفكيك العلاقة الثابتة في بنية ما. بهدف تحويلها إلى لا بنية، إلى مجرد تحولات، هذا يندرج تحته -كما هو واضح-: تحويل الثابت إلى متغير، والمطلق إلى نسبي، واللا تاريخي إلى تاريخي، واللا زمني إلى زمني»[3].

والمراد بـ"الثابت" و"المطلق" و"اللا تاريخي" و"اللا زمني" -في العبارة السابقة- هو الدين، فهو يدعو إلى تجاوز ثوابت هذا الدين، وتحويله إلى مجرد تراث قابل للنقد والرد.

---

(١) الأرجوزة المنبهة على أسماء القراء والرواة لأبي عمرو الداني ص(١٧٠).

(٢) تكوين العقل العربي للجابري (٣٣٩)، وينظر: مشروع النهضة بين الإسلام والعلمانية دراسة في فكر محمد عمارة ومحمد عابد الجابري (١٠٢).

(٣) التراث والحداثة للدكتور محمد عابد الجابري ص(٤٧، ٤٨)، بتصرف

إن الجابري يدعو صراحة إلى طرح التراث الإسلامي جانبا ليحل محله الفكر الحداثي الأوربي في مختلف ميادين الحياة والانخراط في الفكر العالمي المعاصر، فهو ينادي بـ«ضرورة الانخراط الواعي في الفكر العالمي المعاصر للاستفادة من المناهج الحديثة والتفتح على الرؤى الجديدة» [(١)].

بهذا المنهج الحداثي القائم على القطيعة مع تراث الأمة الإسلامية وضرورة الاستفادة من المناهج الغربية الحديثة ولج الجابري بختام نتاجه الثقافي (مدخل إلى القرآن الكريم، وفهم القرآن الحكيم "التفسير الواضح حسب ترتيب النزول") دائرة الدراسات القرآنية –وهو ولوج غريب على الفكر الماركسي[(٢)]– ليجعل من هذين الكتابين ممارسة تطبيقية لمشروعه الفكري الذي دعا إليه على مدار عقود من الزمن، على الرغم أنه مشروع مبني على مناهج لا تتناسب وطبيعة النص القرآني الذي كتب الله له العموم والخلود، مما أوقع الجابريَّ في كثير من المخالفات والتناقضات.

ولا مبرر له في ما دعا إليه سوى الافتتان بما أنتجته الحضارة الغربية الحديثة من مناهج علمية وثقافية، والسيرِ في ركابها في موقفها من الكتاب المقدس بعهديه القديم (التوراة) والحديث (الإنجيل).

❁❁❁❁❁

(١)التراث والحداثة للدكتور محمد عابد الجابري ص(٧).
(٢) التفسير الماركسي للإسلام للدكتور محمد عمارة ص(٧).

المطلب الثاني: انحراف الجابري في منهجه في التعامل مع القضايا القرآنية

الدكتور الجابري لم يعتبر النص القرآني من التراث الذي يجب تجاوزه –وهو أمر لا يختلف معه فيه مؤمن بهذا الكتاب؛ لأن القرآن الكريم كتاب مقدس، لا يجوز وسمه بالتراث، فهو نص حيٌّ باقٍ إلى يوم القيامة– وإنما مفهوم التراث عنده مقصور على ما شيده علماء الأمة عبر القرون السالفة من أدوات فهم النص وما نتج عنها من علوم ومعارف(١).

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تعامل الجابري مع النص القرآن على الرغم أنه أرجع حالة الجمود الفكري لدي الحضارة العربية الإسلامية إلى تمسكها بالنص اللغوي والشرعي؛ أي: القرآن الكريم والسنة النبوية؟

يحدد الجابري موقفه من النص القرآني بعنوان له في كتابه "مدخل إلى القرآن": «**القرآن بوصفه معاصرا لنفسه، ومعاصرا لنا**»(٢)، فيقول:

«ينبغي التمييز منهجيا بين أمرين:

– النص القرآني كما هو مجموع في المصحف من جهة.

– والقرآن كما نزل مفرقاً؛ أي: حسب ترتيب النزول من جهة أخرى؛ ومن ثَمّ التعامل مع كل موضوع نطرحه بشأن القرآن بحسب طبيعته، فإذا كان مما ينتمي إلى النسبي والتاريخي رجعنا به إلى ترتيب النزول، وإن كان مما ينتمي إلى المطلق واللازمني طرحناه على مستوى القرآن ككل بوصفه يشرح بعضه بعضاً، ويكون الحكم فيه هو "قصد الشارع"، وليس الزمن والتاريخ، وهذا لا يمنع اعتماد المستويين معا حين يقتضي الموضوع ذلك»(٣).

ومعنى ذلك أن للقرآن الكريم –عند الجابري– جانين، يختلف أحدهما عن الآخر في منهجية التعامل معه:

(١) مدخل إلى القرآن ص(٢٦).

(٢) المرجع السابق ص(٢٧).

(٣) المرجع السابق ص(٢٧).

الأول: كونه معاصراً لنفسه، ومعناه: أنه مرتبط بالعصر الذي نزل فيه، وبالمؤمنين المخاطبين به وقت نزوله، محدود بالمجال التداولي له[١]، لا يتعداه إلى غيره تلقياً وفهما وتطبيقاً، فهو يقول: «فالظاهرة القرآنية ... هي في انتمائها اللغوي والاجتماعي والثقافي ظاهرة عربية، وبالتالي يجب أن لا ننتظر أن تخرج تماما عن فضاء اللغة العربية، لا على مستوى الإرسال، ولا على مستوى التلقي»[٢].

ومن هنا يتضح أن المنهج الذي اعتمده الجابري ليجعل القرآن الكريم معاصرا لنفسه **هو المنهج التاريخي**. وهو منهج يفضي إلى تحويل النص القرآني من كونه حقيقة مطلقة، إلى كونه نسبياً، ومن كونه عقيدة ثابتة إلى كونه رأياً قابلا للنقد والرد، ومن كونه نصا خاطب البشرية كلها إلى كونه خاصا بمن نزل فيهم، إنه يفضي – باختصار– إلى محو النص القرآني تماما[٣].

يقول د.محمد عمارة: «جوهر هذه النزعة ومقصدها الأساسي هو إقامة قطيعة معرفية كبرى –ومن ثَمّ عملية– مع الموروث الديني»[٤].

إن الجابري بهذا المنهج يجعل القرآن الكريم من التراث الذي يجب نقده وتجاوزه والتحرر منه، وإن لم يصرح هو بذلك.

ذلك المنهج هو الذي سلكه الجابري في طرحه لأكثر قضايا كتابه "مدخل إلى القرآن" كقضية الظاهرة القرآنية، ومسار الكون والتكون، وجمع القرآن الكريم، وقضية إعادة ترتيب سور القرآن حسب النزول التي هي موضوع البحث.

الثاني: كونه معاصرا لنا، ومقصود الجابري بذلك أن يفرض القارئُ على النص القرآني فهمه ومعقوليته، فيكون بذلك متصلاً بالقرآن غير منفصل عنه، فيقول: «تحاول هذه القراءة أن تجعل المقروء معاصرا لنا، ولكن فقط على صعيد الفهم والمعقولية»[٥].

لقد سلك الجابري منهجين ليجعل القرآن معاصرا لنا هما: المنهج المقاصدي، والمنهج البنيوي.

---

(١) التراث والحداثة للجابري ص(٥٣)، مشروع النهضة بين الإسلام والعلمانية ص(١٠٠).
(٢) مدخل إلى القرآن ص(٢٧).
(٣) أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره لمحمد مصطفوي ص(١٣، ١٤)
(٤) خطر النزعة التاريخية على الموروث الديني ص(٤).
(٥) نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي ص(١٢).

أولاً: المنهج المقاصدي.

قبل أن أبين معنى ذلك المنهج عنده، أذكر ما اتفق عليه علماء الأمة في اعتبار مقاصد الشريعة، فأقول:

أجمع العلماء على أن القرآن الكريم قد جاء بتشريع يراعي مصالح المكلفين، فإذا كان لبُّ الشريعة وجوهرُها قائما على مراعاة مصالح العباد المنتظمة في خمس قواعد كلية، وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

فيجب على المفسر مراعاتها في بيان معاني القرآن الكريم، واستنباط حكمه وأحكامه، والترجيح بين أقوال المفسرين عند التعارض، وأن لا ينحسر في دائرة المعاني الحرفية للألفاظ صارفاً نظره عن المقاصد العامة له، يقول الشاطبي: «القرآن والسنة لما كانا عربيين لم يكن لينظر فيهما إلا عربي، كما أن من لم يعرف مقاصدهما لم يحل له أن يتكلم فيهما»[(١)].

فالنظر في النصوص الشرعية في ضوء مقاصدها أمرٌ ضروري؛ لأنه يكشف عن الأهداف الحقيقة لها مع بقائه وفيّا لمعطياتها، وارتباطه الوثيق بالواقع هداية وتوجيها[(٢)]،

وهو منهج سلكه الصحابة والتابعون والأئمة المتبوعون من بعدهم، ولا يزال عليه اليوم المجتهدون من الأمة، **لكن ذلك مضبوط بضابطين:**

الأول: كون المصلحة معتبرة شرعاً، وذلك بأن تكون مندرجة تحت مقصد من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، وهي: حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول أو بعضها فهو مفسدة[(٣)]، يقول أبو حامد الغزالي: «ونعني بالمصلحة: المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم

(١) الموافقات في أصول الشريعة (٣/٢١٣).
(٢) الفكر المقاصدي قواعده وفوائده للدكتور أحمد الريسوني ص(٣٥)، أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره ص(٢١١).
(٣) ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية للدكتور رمضان سعيد البوطي ص(١١٩).

ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة»(١).

فإذا لم تكن المصلحة معتبرة شرعاً، فلا تكون إلا مفسدة واتباعا للهوى، وإن ظنها الناس مصلحة، ولا يجوز النظر في آيات القرآن الكريم في ضوئها؛ إذ لو جاز ذلك لصارت شريعة الله محكومة بظنون الناس وأهوائهم، واستحالت إلى البطلان.

يقول د.رمضان البوطي: «وليس معنى ذلك أن الشارع قد أهمل هنا مصلحةً للناس دلت عليها علومهم وتجاربهم، بل المعنى أن تقدير هؤلاء الناس لهذه المصلحة لابد أن يكون قد اتصل به نوع من الخلل والفساد، فنحن نتهم تقدير الناس، ولا نتهم نصوص الشريعة»(٢).

الثاني: أن لا يؤدي إعمالُ المصلحة ومراعاتُها إلى إهدار نصٍّ من النصوص الشرعية؛ لأن النصوص أوعية للمصالح، وهي السبيل لمعرفتها والوقوف عليها نصا أو استنباطا(٣)، فإهدار النصوص هو تضييع للمصالح، يقول د.محمد أبو عاصي: «مقاصد

---

(١) المستصفى في علم أصول الفقه ص(١٧٤)، وينظر: رعاية المصلحة لنجم الدين الطوفي ص(٢٥).

(٢) ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية ص(٦٧).

(٣) مثال ما هو نص: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧]، وقوله سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ ﴾ [سورة الطلاق، من الآية: ٧]، وقوله جل شأنه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [سورة النحل، من الآية: ٩٠]، وقوله ﷺ: «**لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ**» (أخرجه أحمد في المسند (٢٦٧/٣)، حديث رقم (٢٨٦٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والحاكم في المستدرك (٦٦/٢)، حديث رقم (٢٣٤٥)، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

ومثال ما هو استنباط: ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث الأزرق بن قيس قال: كنا بالأهواز نقاتل الحَرُورِيةَ، فبينا أنا على جُرُف نهر إذا رجلٌ يصلي، وإذا لجامُ دابته بيده، فجعلت الدابة تنازعه، وجعل يتبعها -قال شعبة: هو أبو بَرْزَةَ الأسلمي- فجعل رجل من الخوارج يقول: اللهم افعل بهذا الشيخ. فلما انصرف الشيخ، قال: إني سمعت قولكم، وإني غزوت مع رسول الله e ست مرات أو سبع غزوات وثمانيا، وشهدت تيسيره، وإني إنْ كنتُ=

الشريعة ليست بخارجة أو منفكة عن نطاق النصوص ذاتها، بل إن النصوص جاءت لتحقيقها، ومن ثَمَّ لا ينبغي أن تفهم النصوص الشرعية أو تؤول تأويلا بعيدا عن مقصد الشرع، إذ القاعدة أن "**كل نص يحمل تحقيق مقصد إلهي ينبغي أن يكون ذلك المقصد معينا على فهم النص**"، ذلك أن الإتيان بمقصد من خارج النص يُفهم النص على أساسه يفضي إلى الزيغ والانحراف في التأويل»[(١)].

فالنظر في النص القرآني في ضوء المقاصد الشرعية لكشف معانيه أمر ضروري، وذلك ما حدا بالجابري أن يتخذ ذلك المنهج؛ أي: المنهج المقاصدي ليجعل القرآن الكريم معاصرا لنا، فيقول: «المبدأ الوحيد الذي كانوا (أي: الصحابة) يراعونه دوما هو المصلحة، ولا شيء غيرها»[(٢)].

لكن الجابري –والمدرسة العلمانية عامة– إذ يتخذ هذا المنهج، إنما يتخذه لا للفهم أو المعقولية، وإنما ليتجاوز النص القرآني، فتوظيفه له توظيف فاسد، وفساده من وجهين:

الأول: أنه لا ضابط للمصلحة عنده، فتلك العبارات الفضفاضة، التي أطلقها كـ"حاجات العصر، ومشاكل العصر، وثقافة العصر" مآلها الانحراف عن جادة الطريق في التعامل مع نصوص القرآن الكريم إلى ما يمليه الهوى.

الثاني: أن المصلحة إذا تعارضت مع نص، قدم المصلحة على النص، فإعمال المصالح حينئذٍ يؤدي إلى إهدار النصوص، فيقول الجابري بما لا لبس فيه: «فكثيرا ما نجدهم (أي: الصحابة) يتصرفون بحسب ما تمليه المصلحة صارفين النظر عن النص حتى ولو كان صريحا قطعياً إذا كانت الظروف الخاصة تقتضي مثل هذا التأجيل للنص»[(٣)].

=أن أراجع مع دابتي أحبُّ إلي من أن أدعها ترجع إلى مألفها، فيشق عليَّ. (صحيح البخاري ٣٧٤/١، كتاب: العمل في الصلاة، باب: إذا انفلتت الدابة في الصلاة، ح(١٢١١).

(١) مقالتان في التأويل د.محمد سالم أبو عاصي ص(١٤٨، ١٤٩).

(٢) الدين والدولة وتطبيق الشريعة ص(١٢).

(٣) المرجع السابق ص(١٢).

وذلك من الافتراء على صحابة النبي ﷺ، فمراعاتهم ﷺ للمصالح كان في نطاق النصوص.

فذلك المنهج الذي سلكه الجابري ليجعل القرآن معاصرا لنا، أدى به إلى إهدار النص القرآني وجعله من التراث الذي يجب تجاوزه ليستبدل به الثقافات الغربية الحديثة.

من الأمثلة على ذلك: ما قاله في عدة المتوفى عنها زوجها في قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾[1].

يقول: «وضعت (العدة) تجنبا لاختلاط النسب وما يتولد عنه من منازعات، وإنما حددت بأربعة أشهر وعشر من وفاة زوجها؛ لأنه لم يكن من سبيل لمعرفة ما إذا كانت حاملا من زوجها المتوفى أم غير حامل غير التقدير الذي يقوم على مراقبة الحيض ... الخ، أما اليوم فالعلم الحديث قادر على التعرف على حال المرأة في أية لحظة»[2].

ومراده: أنه إذا كانت الحكمة من الأمر بالتربص هو تجنب خلط الأنساب، فإن العلم الحديث اليوم قادر على التعرف على حال المرأة في أي لحظة، فلا حاجة لتربص المرأة حينئذٍ.

فأنت تراه قد أهدر النص على أعتاب فهمه هو الذي يعتبره من المقاصد؛ وسبب ذلك أنه خلط بين علة الأمر بالتربص، وبين الحكمة منه. فالعلة من الأمر بالتربص هي كون المرأة قد توفي عنها زوجها المدلول عليها باسم الموصول وصلته، والحكمة منه وهو تجنب خلط الأنساب. والحُكم إنما يدور مع علته لا مع حكمته؛ إذ العلة منضبطة، والحكمة غير منضبطة. وقد تظهر الحكمة وقد لا تظهر، ونحن متعبدون بالحُكْم لا بالحكمة.

كما أن الحِكَمَ قد تتزاحم في حكم واحد، فربما تظهر حكمة وتخفى أُخر، وهذا محل ابتلاء واختبار؛ ليظهر المؤمن القوي من المؤمن الضعيف.

ولهذا يقال هنا: إن الحكمة من الأمر بالتربص غير محصورة في تجنب خلط الأنساب، بل تتعدى ذلك إلى ما ذكره ابن القيم -رحمه الله- حين قال:

«قال شيخنا: والصواب أن يقال: أما عدة الوفاة فهي حَرَمٌ لانقضاء النكاح، ورعاية لحق الزوج، ولهذا تحد المتوفى عنها في عدة الوفاة رعاية لحق الزوج، فجعلت

(١) البنيوية النشأة والمفهوم عرض ونقد للدكتور محمد عبد الله بلعفير، (٢٤٢/١٦).
(٢) فهم القرآن الحكيم (٧٩/٣)، بتصرف.

العدة حريما لحق هذا العقد الذي له خطر وشأن، فيحصل بهذه فصل بين نكاح الأول ونكاح الثاني، ولا يتصل الناكحان، ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما عظُم حقُّه حُرِّمت نساؤه من بعده، وبهذا اختص الرسول ﷺ؛ لأن أزواجه في الدنيا هن أزواجه في الآخرة، بخلاف غيره» (١).

وقال أيضا: «وليس المقصود من الإحداد على الزوج الميت مجرد ما ذكرتم من طلب الاستبراء، فإن العدة فيه لم تكن لمجرد العلم ببراءة الرحم، ولهذا تجبُ قبل الدخول، وإنما هو من تعظيم هذا العقد وإظهار خطره وشرفه، وأنه عند الله بمكان، فجعلت العدة حريما له، وجعل الإحداد من تمام هذا المقصود وتأكده، ومزيد الاعتناء به، حتى جعلت الزوجة أولى بفعله على زوجها من أبيها و ابنها وأخيها و سائر أقاربها، وهذا من تعظيم وهذا من تعظيم هذا، ومن الناس من يقول هو تعبد لا يعقل معناه، وهذا فاسد لوجهين:

أحدهما: أنه ليس في الشريعة حكم إلا وله حكمة وإن لم يعقلها كثير من الناس، أو أكثرهم. الثاني: أن العِدد ليست من العبادات المحضة بل فيها من المصالح رعاية حق الزوجين والولد والناكح..."أ.هـ» (٢).

ومن الحِكَم أيضا: ما أثبته العلم الحديث –الذي احتكم إليه الجابري وجعله بديلا للنص القرآني– أن للسائل المنوي للرجل بصمة، تختلف من رجل لآخر، يختزلها رحم المرأة، ولا يمكن التخلص منها إلا بعد ثلاثة أشهر من الوقاع(٣).

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد: ٥/ ٥٩٠.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد: ٥/ ٦٢٢.

(٣) نقلت صحيفة "دنيا الوطن" عن جريدة "المصريون" أن العالم الأمريكي روبرت غيلهم زعيم اليهود في معهد ألبارت أنشتاين، والمختص في علم الأجنة– نقلت عنه أنه أثبت أن للسائل المنوي عند الرجل بصمة تختلف من رجل لآخر كبصمة الأصبع وبصمة العين، وبمجرد جماع الرجل امرأته يختزل رحم المرأة تلك البصمة، ولا يمكن تخلصه منها إلا بعد ثلاثة أشهر، وهذا يبين الحكمة من تحديد عدة المطلقة بثلاثة أشهر تقريبا.

أما تحديد عدة المتوفى عنها زوجها بأربعة أشهر وعشرا؛ فلأن المرأة التي توفي عنها زوجها غالبا ما يخيم عليها حالة من الحزن مما يسبب ضعفاً في المناعة لدي المرأة يترتب عليه بطء في عملية تخلص الرحم من بصمة السائل المنوي المختزل. (شبكة المعلومات الدولية (الانترنت)، موقع صحيفة دنيا الوطن:
https://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2013/08/13/424072.htm)

ثانياً: المنهج البِنْيوي.

طرق الجابري أبواب المنهج البنيوي **ليجعل القرآن الكريم معاصرا لنا، محكوما بثقافة القارئ وفهمه،** فيقول: «إن النظرة البنيوية باهتمامها بالكل أكثر من اهتمامها بالأجزاء، وبنظرتها إلى الأجزاء في إطار الكل الذي تنتمي إليه ضرورية لاكتساب رؤية أشمل وأعمق، ولكنها وحدها لا تكفي، بل لا بد من المزاوجة بينها وبين النظرة التاريخية ..... هذه المزاوجة بين المنهج البنيوي والمنهج التاريخي والطرح الأيديولوجي الواعي هي الأساس المنهجي للرؤية التي نحاول اعتمادها في معالجة بعض مشاكلنا الفكرية»(١).

مفهوم المنهج البِنيوي.

المنهج البنيوي: هو منهج أدبي يعتمد في دراسة النصوص على العلاقة الداخلية للنص، بعيدا عن محيطه الخارجي، وبعيدا عن مؤلفه.

ويمكن صياغة مفهوم البنيوية، فيقال: هي منهجية نقدية تحليلية ، تقوم فلسفتها على اعتبار البنية الذاتية للظواهر بمعزل عن محيطها الخارجي والتأثيرات الأخرى، فهي تنظر إلى تلك الظواهر من الداخل، وتفترض أنها مغلقة على ذاتها البنيوية (٢).

يقول د.محمد عمارة: «ولقد طبقت الهيرمينوطيقا هذا المنهج في قراءة النصوص على كل ألوان النصوص، الدينية منها والبشرية، ولم تميز في النص المؤول بين محكم لا يقبل التأويل، وبين متشابه يقبل التأويل، كما لم تضع من الضوابط للتأويل ما ينقذ ثوابت المعاني والقيم والأخلاق والعقائد من هذا الاجتياح الهيرمينوطيقي لمعاني النصوص»(٣).

ولعل أبرز سمات هذا المنهج أنه لا يلقي بالاً لخصائص النص؛ أعني: كونه نصا ربانيا أو نصا بشريا، ولا بمحيطِه الخارجي، ولا بقصدِ قائله، مما يفسح المجال للقارئ أن يفهم من النص ما يشاء من المعاني بحسب ما يمليه عليه كيانه الثقافي والنفسي والعصري، وبالأخصر أنه: لا قصد لقائل، ولا ثبات لمعنى.

(١) التراث والحداثة ص(٤٣).
(٢) البنيوية النشأة والمفهوم عرض ونقد للدكتور محمد عبد الله بلعفير، (٢٤٢/١٦).
(٣) قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي ص(١٤).

وحتى يتم لهم ذلك، لابد من اتخاذ خطوتين رئيستين:

الأولى: تفكيك النص؛ أي: زعزعة الثقة فيه مهما كانت طبيعته بما يمكن أن يثيره القارئ من تساؤلات حوله.

الثانية: إعادة بنائه؛ أي: إلباسه من المعاني بحسب ما يمتلكه القارئ من مواهب عقلية ولغوية.

إن اتخاذ البِنيوية منهجاً نقديا ربما كانت له ثمار -قبلها البعض- في النصوص الأدبية، لكنه لا يتلاءم قطعاً وطبيعةَ النص القرآني؛ لأنه نص رباني مقدس، وحقيقة مطلقة، لا يقبل التشكيك أو النقد.

ولأن أسلوب القرآن الكريم يتسم بالجمع في التعبير بين المجمل والمفصل، والمجمل- كما عرفه الأصوليون-: ما لم تتضح دلالته(١)، بل معناه متوقف على غيره، والمراد بـ"غيره" هو السياق الداخلي والخارجي للنص، فاستبعاد السياق الخارجي من آيات أخر وأحاديث ودلالات لغوية والاقتصار على السياق الداخلي يجعل المجمل كالمهمل من الخطاب، بل يجعله عرضة لتخرصات متباينة لا ضابط لها. إذاً حاجة النص إلى السياق الخارجي لا تقل أهمية عن سياقه الداخلي.

ولهذا كان فهم النص القرآني فهما صحيحا متوقفا على سياقه الداخلي والخارجي معا، لا ينفك أحدهما عن الآخر بأي حال من الأحوال.

كما أن الاقتصار على السياق الداخلي فقط يتنافى مع مهمة البيان التي أوكلها الله تعالى لنبيه ﷺ بقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾(٣).

ويتنافى أيضاً مع قوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾(٤) ومعروف أن العربية كثيرا ما تعتمد على القرائن الخارجية للنص لكشف معانيه، فاستبعاد السياق الخارجي خروج عن سنن التعبير والبيان.

---

(١) جمع الجوامع في أصول الفقه لتاج الدين السبكي ص(٥٥).
(٢) سورة النحل، من الآية: ٤٤.
(٣) سورة النحل، من الآية: ٦٤.
(٤) سورة إبراهيم، من الآية: ٤.

فالجابري حاول جاهدا ليَّ أعناق النصوص، وانتزاعها من سياقها العام، ليحمِّلها ما لا تحتمله مما أنتجته فلسفة العالم الغربي وثقافته على أيدي مفكريها أمثال: كانْت وفرويد وباشلار وألتوسير وفوكو وغيرهم، وبتعبيره هو: «أصبح الفكر المعاصر لا يتنفس بدونها»[(١)].

بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، إنه يريد أن يلوِّن ماضي الحضارة الإسلامية بلون الحاضر الأوربي، ويلبسها رداءه، فيقول: «حاضر الغرب الأوربي الذي يفرض نفسه كـ"ذات" للعصر كله، للإنسانية جمعاء، وبالتالي كـ"أساس" لكل مستقبل ممكن، الشيء الذي جعل نفسه ينسحب على الماضي نفسه، يلوِّنه بلوْنِه»[(٢)].

ومن الشواهد على ذلك: تفسيره "الإسلام" -في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[(٣)]- بـ"الدين المنزل من عند الله"، ومراده بذلك الدين الجامع للديانات السماوية الثلاث: اليهودية، والنصرانية، والإسلام، وهو ما يصدق عليها دين إبراهيم عليه السلام، فيقول: «فالمعنى الذي نرجحه ... ومن يبتغ دينا غير منزل من الله (التوحيد، شرع الله) فلن يقبل منه، بمعنى أن من يبتغ دينا غير دين إبراهيم فلن يقبل منه، وهذا ما يفيده السياق، ويشهد له الواقع، فقد اعترف الإسلام باليهودية والنصرانية، وفرض على أهلهما الجزية في مقابل الزكاة»[(٤)].

وقد بنى زعمه على أمرين:

١- استدعاء دلالات السياق السابقة واللاحقة، فقد سبق قوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[(٥)]، والخطاب في الآية -كما زعم- لليهود، فهم مسلمون بحكم التوراة[(٦)]، ويدخل في هذا الوصف النصارى أيضاً، فهم مسلمون بحكم الإنجيل.

(١) فهم القرآن الحكيم (٣/١٦٩).
(٢) نحن والتراث ص(١٤).
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٤) فهم القرآن الحكيم (٣/١٤٥).
(٥) سورة آل عمران، من الآية: ٨٠.
(٦) فهم القرآن الحكيم (٣/١٤٤).

وقوله تعالى -فيما بعد-: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[1]، فالمعني بهذه الآية هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، شهد كتابهم أن محمدا ﷺ هو الرسول المبشر به عندهم[2].

كذلك قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[3]، إلى قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾[4] فالخطاب لليهود، والمراد بالبر: التوبة التي نتيجتها الجنة[5]، يريد بذلك أنه يكفيهم لدخول الجنة الاعتراف -مجرد الاعتراف- بكون محمد ﷺ نبياً، ثم التصدق مما يحبون.

٢- استدعاء الواقع العملي، فقد اعترف الإسلام باليهودية والنصرانية، وفرض عليهما الجزية مقابل الزكاة على المسلمين.

وإنما دعاهم محمد إلى دين إبراهيم بعد فشل تجربته في دعوتهم إلى الانضمام إلى الإسلام مبدأ هجرته، حيث تكشفت له حقيقة أنه: "لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم"[6].

المناقشة والرد:

أولا: لا خلاف في ضرورة الأخذ بالسياق في فهم الآيات القرآنية، فلا يقبل من مفسِّر تجاوزه، ولا يجوز حصره في السياق الخاص بمورد الآية؛ أي: السابق واللاحق منها فحسب، وإنما تجب مراعاة السياق الخاص بمورد الآية والسياق العام لجميع آي القرآن الكريم وسوره.

وهذا بشهادة الجابري نفسه، حيث استدعى عبارة الإمام الشاطبي: «**المدني من السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التنزيل، وإلا لم يصح**»[7].

---

(١) سورة آل عمران، من الآية: ٨٦.
(٢) فهم القرآن الحكيم (١٤٦/٣).
(٣) سورة آل عمران، من الآية: ٩٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.
(٥) فهم القرآن الحكيم (١٤٦/٣).
(٦) المرجع السابق (٩١/٣).
(٧) المرجع السابق (٩/١)، وينظر: الموافقات: ٤/ ٢٥٦.

فالقرآن الكريم كلٌّ لا يتجزأ، ينظر آخرُه في ضوء أوله، وأوَّلُه في ضوء آخره، فحصر السياق في السياق الخاص أمر خاطئ، غير جائز، وسبب في التأويل الباطل للقرآن الكريم، وهو ما اقترفه الجابري؛ إذ فسر الدين بدين إبراهيم عليه السلام.

والآيات القرآنية ناطقة بما لا يدع مجالا لتأويل الجابري أو غيره أن اليهود والنصارى لا يقبل منهم دين ما لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتبعوا ما أنزل إليه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾(١)، فالآية قد نفت عنهم الإيمان مطلقاً، لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ.

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٢)، فمعنى قوله: "لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ": لا يعتد بشيء مما أنتم عليه حتى تقيموا التوراة والإنجيل، والقرآن، وهو المراد بـ"ما أنزل إليكم من ربكم".

وأحاديث النبي ﷺ أيضا ناطقة بتلك الحقيقة، من ذلك قوله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(٣).

ثانياً: أن السياق الخاص الذي أخذ به الجابري قد وضعه في غير موضعه، وحمله على غير محمله.

فقوله تعالى: " مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ" هو بيان لشأن النبيين والمرسلين عامة من لدن آدم عليه السلام حتى خاتمهم محمد ﷺ، وهو رد على مزاعم النصارى خاصة الذين ادعوا أن عيسى عليه السلام إله، فالخطاب فيها " أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ " صالح للمسلمين، ويؤيده مناسبة النزول، فقد روي عن الحسن أنه قال: بلغني أن رجلا قال: يا رسول الله! نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك، قال: «**لَا، وَلَكِنْ أَكْرِمُوا نَبِيَّكُم، واعْرِفُوا الحَقَّ لِأَهْلِه، فَإِنَّه لا يَنبَغِي أَن يُسْجدَ لأَحَدٍ مِن دُونِ اللهِ**»، فأنزلَ

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٥.
(٢) سورة المائدة، من الآية: ٦٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام، ح(١٥٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الله الآية، وبناء عليه فوصف المخاطبين بالإسلام، مطلق وعلى حقيقته، ورجح الزمخشري هذا الوجه(١).

وصالح لليهود والنصارى، ويؤيده مناسبة النزول، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم، فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريده منا يا محمد فقال رسول الله ﷺ: «**مَعَاذَ اللهِ أَن نَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ أَو نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِه، مَا بِذَلك بَعَثَنِي، وَلَا بِذَلِكَ أَمَرَنِي**»، فأنزل الله الآية

وبناءً عليه، فوصْف المخاطبين بكونهم مسلمين ليس على إطلاقه، لكنه محمول على التهيؤ للإسلام بحكم الفطرة، أو على تقدير صيرورتهم إلى الإسلام ودخولهم فيه(٢)، أو أن الخطاب لهم، والمراد به أسلافهم، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾(٣)، فهم لم يقتلوا الأنبياء ولا عبدوا العجل، وإنما وقع ذلك من أسلافهم، فخوطبوا بما فعلوا.

ووصفهم بالمسلمين، وصف لغوي، فجميع من دان لله تعالى بدين الحق فهو مسلم.

وعلى كلٍّ فوصفهم بالمسلمين ليس وصفا مطلقاً فلا يستقيم الاستدلال به على كون اليهود والنصارى اليوم على دين الحق.

أما قوله تعالى: "كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ"، **فالآية حجة عليه**، ألا ترى أن الله قد وصفهم بالكفر، فكيف يستقيم الاستدلال بالآية على أن اليهود والنصارى على دين الحق والتوحيد؟ أم أن مجرد الحديث عنهم دليل على كونهم على الدين الحق، اللهم فضلا عن الإنكار عليهم، إلا عند من يضعون الآيات في غير موضعها.

---

(١) الكشاف للزمخشري (٢/٥٧٥)

(٢) حاشية الطيبي على الكشاف (٤/١٦١)، ونظم الدرر للبقاعي (٤/٤٦٩)، وتفسير المظهري للقاضي محمد ثناء الله العثماني المظهري (٢/٨٣).

(٣) سورة البقرة، من الآيتين: ٩١، ٩٢.

كذلك قوله تعالى: "لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ" لا دليل على كون الخطاب فيه لليهود؛ بل هو خطاب للمؤمنين، وارد على سبيل الاستطراد، فقد بينت الآيات السابقة أن النفقة يوم القيامة لن تنفع الكافرين، فلو افتدى أحدهم بملء الأرض ذهبا لن يقبل منه، بيَّن في هذه الآية أن ما ينفع المؤمنين هو النفقة في الدنيا مما يحبون، فلا يستقيم الاستدلال بالآية على أن دخول اليهود الجنة معلق بنفقتهم مما يحبون، لا بإيمانهم بمحمد ﷺ.

وخلاصة القول: أن السياق الخاص والعام دليل على أن المراد بالإسلام في هذه الآية هو: الدين الذي بُعث به محمد ﷺ عقيدة وشريعة، وأن من دان بغيره فهو كافر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ ﴾[1]، وقال جل شأنه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨ ﴾[2]. وأن الجابري قد أخطأ خطأ فاحشا حين عزل الآية عن سياقها العام في القرآن الكريم كله، وحملها على غير محملها.

والشواهد كثيرة على انحراف الجابري في نظرته للقرآن الكريم كله، وفي تعامله مع نصوصه فهما وتفسيرا، وكيف أنه كان ينتزع الآيات من سياقها العام، وينظر إليها نظرة تفكيكية، ليلبسها رداء حاكه بعقله وثقافته الأوربية، ليحملها بعد ذلك على غير محاملها، ويضرب نصوص القرآن بعضها ببعض.

❁❁❁❁❁

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٠.

(٢)سورة آل عمران، الآية: ٩٨.

المبحث الثاني

ترتيب سور القرآن الكريم

وفق زمن نزولها بين القبول والرد.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره في أقوال العلماء.

المطلب الثاني: وجوب المحافظة على ترتيب السور على ما هي عليه في المصحف الشريف.

المطلب الثالث: أبرز من رتب سور القرآن الكريم ترتيبا زمنيا، والهدف منه.

المطلب الأول: ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره في أقوال العلماء.

أولاً: ترتيب آيات القرآن الكريم.

أجمعت الأمة على أن ترتيب الآيات في سور القرآن الكريم توقيفيٌّ صادرٌ عن رب العزة سبحانه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لا مجال فيه للرأي والاجتهاد، وقد نقل هذا الإجماع كثير من الأئمة، ومنهم: الباقلانيُّ، وابنُ الزبير الغرناطي، والزركشي، والسيوطي(١).

وقد ساق الأئمة أدلة كثيرة على ذلك الإجماع من القرآن الكريم، والسنة النبوية، وأقوال الصحابة وعملهم، ولما كان الموضوع محل إجماع أغنى ذلك عن إعادة القول فيه.

ثانيا: ترتيب سور القرآن الكريم.

أما ترتيب السور على ما هي عليه في المصحف فقد اختلف العلماء فيه على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه كان بتوقيف عن النبي ﷺ؛ وهو قول كثير من العلماء(٢)؛ وعزاه الألوسي والدكتور محمد عبد الله دراز إلى الجمهور(٣).

الثاني: أنه كان باجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم، وهو رأي الجمهور؛ عزاه إليهم القاضي عياض والزركشي والسيوطي(٤).

---

(١) يراجع: الانتصار للقرآن للقاضي الباقلاني: ١/ ٢٨١، والبرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي: ص٧٩، والبرهان في علوم القرآن للزركشي: ١/ ٢٥٦، وأسرار ترتيب القرآن للسيوطي: ص٦٨، والإتقان في علوم القرآن له: ١/ ٢١١.

(٢) ذهب إلى هذا القول: أبو جعفر النحاس، وابن الحصار، وأبو عمر الداني، والكِرْمانيّ، والبغوي، وابن الزبير، والطيبي، وبدر الدين الزركشي، وولي الدين المَلَوي، وغيرهم كثير (ترتيب سور القرآن الكريم للدكتور طه عابدين طه ص(٧٨).

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي (٢٧/١)، النقد الفني لمشروع ترتيب القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز ص(٦٠)، مقال نشر في مجلة كنوز الفرقان – العددين الأول والثاني– السنة الرابعة.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (١٣٧/٣)، البرهان في علوم القرآن للزركشي(٢٥٧/١).

وقد أرجع الإمام الزركشي أرجع الخلاف بينهما إلى الخلاف اللفظي[1]؛ حيث كان اجتهاد الصحابة بناء على إشارات نبوية قولية أو فعلية، جمعتهم على هذا الترتيب الذي أجمعوا، فمآل القولين واحد، وهو أنه كان بتوقيف من النبي ﷺ تصريحا أو استنباطا من فعله.

الثالث: أنه توقيفي إلا سورتي الأنفال والتوبة، فإنه كان باجتهاد من عثمان ﷺ؛ وهذا رأي الإمام البيهقي، ومال إليه ابن عطية وابن حجر العسقلاني[2].

ولكل مذهب أدلته التي استند إليها فيما ذهب إليه، وليس من مهمة هذا البحث سردها ولا مناقشتها[3].

❁❁❁❁❁

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي(٢٥٧/١)، وينظر: نظم الدرر (١٥٨/٢٢).
(٢) المحرر الوجيز (٥٠/١)، فتح الباري (٤٢/٩).
(٣) نشرت بحوث في تفصيل هذه المسألة بأدلتها، منها:
- ترتيب سور القرآن الكريم للدكتور طه عابدين طه ص(٧٨)، والبحث منشور بمجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد التاسع).
- ترتيب آيات وسور القرآن الكريم للدكتور محمد أبو زيد أبو زيد، والدكتور عمر محمد الفرماوي).

المطلب الثاني: وجوب المحافظة على ترتيب السور على ما هي عليه في المصحف الشريف

اتفق العلماء على أنه يجب اتباع ترتيب السور على ما هي عليه في المصحف الشريف كتابة ورسماً؛ لأنه مما أجمعت عليه الأمة، والإجماع حجة ملزمة، ولأن مخالفته يفتح باب الفتنة، وفيه انتهاك لقداسة القرآن الكريم وعظمته، ويفوت ما اشتمل عليه هذا الترتيب من حِكَم ربانية(١).

لكنهم اتفقوا على جواز مخالفة الترتيب في باب العبادة والتلقين والدرس والتعليم للآثار الواردة في هذا الباب، يقول أبو بكر الباقلاني: «واعلموا -رحمكم الله- أن من قال من أهل العلم إن تأليف سور المصحف كان واجباً عن توقيف من الرسول، لا يقول مع ذلك إن تلقين القرآن وتلاوته والصلاة به يجب أن يكون مرتبا على حسب الترتيب الموقف عليه في المصحف، بل إنما يوجب تأليف سوره كذلك في الرسم والكتابة، ولا نعلم أحدا منهم قال إن ترتيب ذلك واجب في الصلوات المفروضة وغيرها، وفي تلقِين القرآنِ ودرسه، وإنه لا يحل لأحد أن يتلقن الكهف قبل البقرة، ويقرأ في صلاته الحج بعد الكهف، ولا أن يدرس البقرة ثم يدرس بعدها النحل والرعد، هذا مما لا نعرفه مذهبا لأحد»(٢).

ومما يدل على جواز مخالفة ترتيب المصحف في باب التعبد ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث حذيفة قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلا... الحديث(٣).

فدل فعل النبي ﷺ على جواز مخالفة الترتيب في الصلاة، قال النووي: «لو خالف الموالاة فقرأ سورة لا تلي الأولى، أو خالف الترتيب فقرأ سورة ثم قرأ سورة قبلها جاز، فقد جاء بذلك آثار كثيرة»(٤).

---

(١) ترتيب سور القرآن الكريم للدكتور طه عابدين طه ص(٧٣).
(٢) الانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلاني ص(١/٢٨٠).
(٣) صحيح مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، حديث رقم (٧٧٢).
(٤) التبيان في آداب حملة القرآن ص(٩٩)، ط: دار ابن حزم- بيروت.

ومما يدل على جواز مخالفة ترتيب المصحف في باب التلقين والدرس ما أخرجه البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «جمعت المحكم في عهد رسول الله ﷺ، فقلت له: وما المحكم؟ قال: المفصل»(١).

وما أخرجه البخاري عن يوسف بن ماهك، أنه قال: إني عند عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- إذ جاءها عراقي، فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك، وما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين، أريني مصحفَك؟ قالت: لم؟ قال: لعلي أولف القرآن عليه، فإنه يُقرأُ غيرَ مؤلَّف، قالت: وما يضرك أيّه قرأت قبل؟...الحديث(٢).

وما روي أن عليا —كرم الله وجهه- جمع القرآن الكريم مرتِّبا سوره ترتيبا زمنياً، فبدأه بسورة "اقرأ"، ثم "المدثر"، ثم "نون"، ثم "المزمل"، ثم "التكوير" إلى آخر ما نزل بمكة، ثم ما نزل بالمدينة(٣).

يقول عبد القادر بن ملّا حويش: «حينما تشاور الأصحاب ﷺ على نسخه (أي: القرآن) على الوجه المذكور أراد الإمام علي -كرم الله وجهه- ترتيب آيه وسوره بحسب النزول، لا لأنه لم ير صحة ما أجمعوا عليه، ولا لأنه —حاشاه- لم يعلم أن ذلك توقيفي لا محل للاجتهاد فيه، بل أراد أن تعلم العامة تاريخ نزوله ومكانه وزمانه، وكيفية إنزاله، وأسباب تنزيله، ووقائعه وحوادثه، ومقدمه ومؤخره، وعامه وخاصه، ومطلقه ومقيده، وما يسمى بناسخه ومنسوخه، بادئ الرأي، دون تكلف لمراجعة أو سؤال»(٤).

وخلاصة القول أن الالتزام بترتيب السور في المصحف العثماني أمر واجب، ولا يجوز مخالفته إلا في باب العبادة أو التلقين والدرس.

❁❁❁❁❁

(١) صحيح البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: تعليم الصبيان القرآن، حديث رقم (٥٠٣٦).
(٢) صحيح البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن، حديث رقم (٤٩٩٣).
(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ص(١٣٧).
(٤) بيان المعاني لعبد القادر بن ملّا حويش (٣/١).

المطلب الثالث: أبرز من رتب سور القرآن الكريم ترتيبا زمنيا، والهدف منه.

يمتد تاريخ محاولة ترتيب سور القرآن وفق زمن نزولها إلى عصر الصحابة ﷺ، فقد أثر أن لعلي بن أبي طالب –كرم الله وجهه– مصحفا رتب فيه القرآن الكريم على النزول، وقدم الناسخ على المنسوخ(١).

وأُثر عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه قال: أول ما نزل من القرآن بمكة، وما أنزل منه بالمدينة الأول فالأول، فكانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة فكتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما أنزل من القرآن: "ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ"، ثم "نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ"، ثم "يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ"، ثم "يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ"، ثم "تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ"، ثم "إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ".... إلخ(٢).

وروي عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن أنهما قالا: أنزل الله من القرآن بمكة: "ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ"، و"نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ"، والمزمل، والمدثر، و"تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ" ...إلخ(٣).

وفي العصر الحديث كان من المفسرين من سلك في تفسيره مسلك الترتيب الزمني لتنزيل السور، مثل:

- عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى سنة: ١٣٩٨هـ)، في تفسيره المسمى: "بيان المعاني".
- محمد عزة بن عبد الهادي دروزة (المتوفى سنة: ١٤٠٤هـ) في تفسيره المسمى: "التفسير الحديث".
- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (المتوفى سنة: ١٤٢٤هـ)، في تفسيره المسمى: "معارج التفكر ودقائق التدبر".

---

(١) تاريخ القرآن للزنجاني ص(٤٩).

(٢) الأثر: أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن ص(٣٣)، وفي سنده: عمر بن هارون، وهو متروك. (تقريب التهذيب ص٤١٧).

(٣) الأثر : أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٤٢/٧)، وسنده ضعيف؛ لأن فيه علي بن الحسين بن واقد القرشي، قال فيه ابن حجر: صدوق يهم (تقريب التهذيب ص٤٠٠).

ومع هذه المحاولات القيِّمة يجب أن أنبه على أن هذا الترتيب لم يبلغ درجة الجزم به؛ لأنه لم يستند إلى دليل قطعي، وإنما مستنده في ذلك أمارات لا يرتقي معظمها إلى درجة الجزم بمقتضاها، وغاية ما يمكن قوله: إنها استندت إلى ما دل سبب النزول على تاريخ نزوله، والذي ارتبطت به الآيات من أسباب النزول لا يتجاوز عددها ثماني وثمانين وثمانمائة آية، فعن محمد بن سيرين أنه قال: «قلت لعكرمة: ألفوه كما أنزل، الأول فالأول؟ فقال عكرمة: لو اجتمع الإنس والجن على أن يؤلفوه ذلك التأليف ما استطاعوا. قال محمد: وأراه صادقا»(١).

يقول دروزة: «من الحق أن نقول: إنه ليس في الإمكان تعيين ترتيب صحيح لنزول السور القرآنية جميعها، كما أنه ليس هناك ترتيب يثبت بكماله على النقد أو يستند إلى أسانيد قوية ووثيقة، وزيادة على هذا فإن في القول بترتيب السور حسب نزولها شيئا من التجوز»(٢).

الهدف من تفسير السور وفقا لزمن نزولها.

كان لهؤلاء الأعلام الثلاثة من وراء تفسيرهم القرآن وفق زمن نزول السور أهدافٌ سامية، نابعة عن الهدف الأسمى لنزول القرآن العظيم الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وقوله جل ذكره: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

ويمكن إجمال تلك الأهداف فيما يأتي:

١- معرفة الجو العام الذي نزلت فيه السورة الكريمة والوقوف عليه، فإن ذلك يساعد على معرفة موضوع السورة وتحليلها والوقوف على ما اشتملت عليه من حِكَم وأحكام وأهداف ومواعظ.

٢- معرفة سير الدعوة المحمدية وأطوارها في العهدين: المكي والمدني، ومدى ارتباط تلك الأطوار بالوحي الرباني، يقول دروزة معللا سلوكه في التفسير مسلك الترتيب الزمني للنزول: «هذا يتّسق مع المنهج الذي اعتقدنا أنه الأفضل لفهم القرآن وخدمته؛ إذ بذلك يمكن متابعة السيرة النبوية زمنا بعد زمن، كما يمكن متابعة أطوار

(١) الأثر: أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٣٥،٣٦).
(٢) التفسير الحديث (١/١٣).

التنزيل ومراحله بشكل أوضح وأدقّ، وبهذا وذاك يندمج القارئ في جوّ نزول القرآن وجوّ ظروفه ومناسباته ومداه، ومفهوماته وتتجلى له حكمة التنزيل»[(١)].

٣- الوقوف على المنهج التربوي الذي سلكه القرآن الكريم في التدرج بالأمة من العقائد إلى الأحكام، ومن الأصول إلى الفروع، يقول عبد الرحمن حبنكة: «وقد رأيت بالتدبر الميداني للسور أن ما ذكره المختصون بعلوم القرآن من ترتيب نزولٍ (أي: ترتيب نزول السور وفق زمن نزولها) هو في معظمه حق، أخذا من تسلسل البناء المعرفي التكاملي، وتسلسل التكامل التربوي، واكتشفت في هذا التدبر أمورا جليلة تتعلق بحركة البناء المعرفي لأمور الدين، وحركة المعالجات التربوية الربانية الشاملة للرسول ﷺ، وللذين آمنوا به واتبعوه، وللذين لم يستجيبوا لدعوة الرسول متريّثين أو مكذبين كافرين» [(٢)].

٤- أنه يعين على تحديد المتقدم من المتأخر في النزول، وذلك هو الأساس في التمييز بين الناسخ والمنسوخ من آيات القرآن الكريم.

تلك هي أبرز المقاصد في سلوك بعض المحدَثين هذا المسلك، وهي مقاصد تعين على تدبر القرآن الكريم وفهم معانيه وحكمه وأسراره.

والخروج على هذه المقاصد هو نقض لهدفه الأسمى وانتهاك لقداسته العظمى، وهو ما عملت له الدراسات الاستشراقية في الغرب وأذنابها في العالم الإسلامي، حيث كان للمستشرقين جهد كبير فيما يخص ترتيب نزول القرآن الكريم ترتيبا زمنياً حتى ظن بعض الباحثين أن هذا الباب من بدعهم[(٣)]، فلم يكن جهدهم لذات الأهداف سالفة الذكر، بل كانت لهم أهداف أخرى، أبرزها ما يأتي:

١- القول بتاريخية القرآن الكريم.

٢- قطع الصلة بين القرآن الكريم ومصدره الرباني، ومحاولة إثبات أنه من افتراء محمد ﷺ.

(١) التفسير الحديث (١/٧).
(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر (١/٦).
(٣) علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره للدكتور أحمد خالد شكري، والأستاذ عمران سميح نزال ص(٤٧).

٣- إنكار حقيقة أن القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة (التوراة والإنجيل على وجه الخصوص) صدرت من منبع واحد، بل القرآن محاولة لإعادة صياغة هذه الكتب في صورة جديدة.

٤- تصوير أن محمدا ﷺ مصلح اجتماعي، قاد ثورة اشتراكية على النظام الاجتماعي والاقتصادي في مكة.

مما أحدث ردة فعل معادية لما قاموا به لدى المسلمين، فلم تلق بضاعتهم رواجا بين أهل العلم وعوام المسلمين، وكان على رأس هؤلاء المستشرقين الذين رتبوا سور القرآن ترتيبا زمنيا:

- المستشرق الألماني "جوستاف فايل" (١٨٠٨ – ١٨٨٩م) في كتابيه: "مقدمة تاريخية نقدية للقرآن"، و"النبي محمد: حياته وتعليمه"
- المستشرق الألماني "تيودور نولدكه" (١٨٣٦ – ١٩٣٠م)، في كتابه "تاريخ القرآن".
- هـ. جريم "H. Grimme " (١٨٦٤ – ١٩٤٢م) في كتابه "محمد" في جزأين.
- المستشرق الأسكتلندي "وليم موير" (١٨١٩ – ١٩٠٥) في الجزء الثاني من كتابه "حياة محمد وتاريخ الإسلام".
- المستشرق الفرنسي "ريجيس بلاشير" (١٩٠٠ – ١٩٧٣).
- المستشرق الإنجليزي "ريتشارد بل"، في الفصل السادس من كتابه "مقدمة في القرآن"[١].

❁❁❁❁❁

(١) دفاع عن القرآن ضد منتقديه للدكتور عبد الرحمن بدوي ص(١٢٥)، آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره دراسة نقدية للدكتور عمر إبراهيم رضوان (١٠٣/١).

المبحث الثالث

ترتيب الجابري لسور القرآن الكريم.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: موقف الجابري من ترتيب آيات وسور المصحف العثماني.

المطلب الثاني: ترتيب الجابري لآيات القرآن الكريم وسوره.

المطلب الثالث: ترتيب سور القرآن الكريم عند المستشرقين وتأثر الجابري بهم.

المطلب الأول: **موقف الجابري من ترتيب آيات وسور المصحف العثماني**.

لم تكن المدرسة العلمانية لتسلم بالقضايا الإسلامية المبنية على النقل الصحيح والفهم الدقيق، بل ديدنها هو التشكيك في كل ثابت، ولو كان قطعيا، لتتخذ من هذا المنهج أداة هدم للعلوم الإسلامية التي استقرت في وجدان الأمة عبر تاريخها العريق، وتحل محلها العلوم الغربية العصرية.

فقضية ترتيب الآيات والسور التي طرَقَ الجابري بابها تحدث فيها حديثا حاد فيه عن الجادة بفكر مغلوط وشبه واهية وأدلة فاسدة؛ ليسوغ لنفسه بعد ذلك إنشاء ترتيب ارتآه؛ وليؤسس عليه زعمه الفاسد بتاريخية القرآن، فيتجاوزه إلى العلوم الغربية، وحتى لو كان ذلك على حساب المنهج العلمي الدقيق الذي يزعم الالتزام به.

أولاً: **موقف الجابري من ترتيب آيات القرآن الكريم:**

فرق الجابري –وهو بصدد عرض رأيه في هذه المسألة– بين حالتين لنزول سور القرآن الكريم:

الأولى: أن تكون السورة قد نزلت دفعة واحدة، ففي هذه الحالة جزم القول بأن ترتيب آياتها ترتيب توقيفي.

الثانية: أن تكون السورة قد نزلت متفرقة في مدد مختلفة، فترتيب الآيات حينئذٍ كان باجتهاد اللجنة التي شكلها عثمان ﷺ لجمع القرآن الكريم[1]، فيقول: «وهذا ما يستفاد من رواية ذكرها أبو داود في سننه، تخص الآيتين الأخيرتين من سورة التوبة، ولم يكونا قد أدرجتا فيها عند جمع القرآن زمن عمر بن الخطاب، تقول الرواية نقلا عن الزبير بن العوام: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة، فقال: أشهد أني سمعتها من رسول الله، ووعيتها، فقال عمر: "أنا أشهد لقد سمعتهما، ثم قال: لو

(١) مدخل إلى القرآن ص(٢١٦).

كانتا ثلاث آيات لجعلتها على حدة، فانظروا آخر سورة من القرآن فألحقوهما في آخرها، فألحقوهما بسورة التوبة"(١).

ويستدل بعضهم بهذه الحادثة على أن ترتيب الآيات لم يكن في القرآن كله بتوقيف، إنما كان من عمل الصحابة أيضاً»(٢).

ثانيا: موقفه من ترتيب السور:

أما ترتيب سور المصحف الشريف فقد جزم القول بأنه كان باجتهاد من تلك اللجنة.

لكنه -إذ يكشف ويحلل المعايير التي قام عليها بنيان هذا الترتيب المبارك- يرى أنه ترتيب لا يتعدى المعيار الكمي لطول السور وقصرها، فقدم من السور طِوَلها -باستثناء سورة الفاتحة- وأخَّر ما دونها، فقدمت **السور الطوَال**، ثم **المئين**، ثم **المثاني**، ثم **المفصل**، فيقول: «وهذا الترتيب من الأطول إلى الأقصر هو المنحنى العام، بمعنى أن هناك استثناءات، وإذا كان من الممكن إخراج سورة الفاتحة من إطار هذا الترتيب بوصفها فاتحة الكتاب كله لتكون البداية من البقرة باعتبارها أول سورة نزلت في المدينة»(٣).

واستدل على ذلك بحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة، وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر "بسم الله الرحمن الرحيم"، ووضعتموها في السبع الطول، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: «**ضَعُوا هَؤُلَاءِ الآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا**» وإذا نزلت عليه الآية فيقول: «**ضَعُوا هَذِهِ الآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا**»، وكانت الأنفال من أوائل ما نزلت بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ، ولم يبين لنا أنها منها،

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٠/٢)، حديث رقم (١٧١٥)، وابن أبي داود في المصاحف ص(١١١)، وفيه سنده انقطاع، فإن عبادا لم يدرك قصة جمع القرآن؛ قاله الشيخ أحمد شاكر

(٢) مدخل إلى القرآن ص(٢١٧).

(٣) المرجع السابق ص(٢٣٣).

فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر "بسم الله الرحمن الرحيم"، فوضعتها في السبع الطول»[1].

المناقشة والرد.

أولا: أما موقفه من ترتيب الآيات:

فقد حاد فيه عن الصواب وخالف إجماع الأمة، ولم يكن مقبولاً منه ولا من غيره الطعن في القضايا القطعية التي اتسق فيها العقل الصحيح مع النقل الصريح، واتخذت من الموضوعية العلمية سبيلا لإثباتها، فأي طعن فيها مرده إلى مخالفة المنهج العلمي الدقيق في البحث.

لقد خالف الجابري أدنى ما يعرف في المناهج العلمية من: الأمانة العلمية في النقل، ومعرفة مظان الأدلة، وضرورة ترتيبها، فقدَّم الدليل الظني على القطعي، والضعيف على الصحيح، يظهر ذلك مما يأتي:

أولاً: أنه عزا أثر الحارث بن خزيمة إلى أبي داود في سننه، وهذا عزو خطأ؛ فالذي أخرجه هو ابن أبي داود صاحب كتاب "المصاحف"، وليس أبو داود صاحب "السنن".

وذلك العزو له إحدى دلالتين: إما خواء عقليته العلمية المتعلقة بعلم الحديث؛ إذ لم يستطع أن يفرق بين أبي داود صاحب السنن، وبين ابن أبي داود صاحب كتاب "المصاحف"، وإما عدم أمانته العلمية في النقل؛ إذ دلس على قارئيه، فعزا الأثر إلى كتَابٍ مقدَّمٍ عند علماء الأمة ونقادها على ما دون الصحيحين؛ ليروج له لدى قرائه، فيستخلص منه ما يسلمون له به.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٤٩/١)، كتاب: باب: من جهر بها (أي: بالبسملة)، ح(٧٨٦)، والترمذي في سننه (٢٧٢/٥)، كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: ومن سورة التوبة، حديث رقم (٣٠٨٦)، وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث عوف، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس، وأخرجه أحمد في المسند (٣٣٢/١)، حديث رقم: (٣٩٩)، وابن حبان في صحيحه (٢٣١/١)، كتاب: الوحي- ذكر ما كان يأمر النبي ﷺ يكتبه القرآن عند نزول الآية بعد الآية، حديث رقم (٤٣)، والحاكم في= =المستدرك (٢٤١/٢)، كتاب: التفسير حديث رقم: (٢٨٧٥)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣٢٨/٧)، حديث رقم: (٧٦٣٨).

ثانياً: أنه جعل الأثر من رواية الزبير بن العوام ﷺ، والحق أنه لم يثبت من طريق واحد أنه من روايته، بل راويه الأعلى هو حفيده عباد بن عبد الله، فهل بالضرورة أن يكون عباد قد رواه عن جده الزبير، فيصرح الجابري به؟ أو أنه التخمين والحدس؟

ثالثاً: أن هذا الأثر ضعيف سندا ومتنا، فلا ينهض لدرجة الاحتجاج به.

أما ضعفه من جهة السند، فلسببين:

الأول: أنه من رواية محمد بن إسحاق، وهو –على إمامته– مدلس، ولم يصرح فيه بالتحديث عن يحيى بن عباد.

الثاني: أنه مرسل، إذ إنه من رواية عباد بن عبد الله بن الزبير، وهو تابعي، وقال فيه ابن حجر العسقلاني: «وأما روايته عن عمر بن الخطاب فمرسلة بلا تردد» (١).

وأما ضعفه من جهة المتن فلأنه منكر؛ لمخالفته الحديث الصحيح، فقد أخرج البخاري عن زيد بن ثابت ﷺ قال: «فتتبعت القرآن، أجمعه من العسب والرقاع واللخاف وصدور الرجال، فوجدت في آخر سورة التوبة: "لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ"...إلى آخرها مع خزيمة، أو أبي خزيمة، فألحقتها في سورتها» (٢).

فواضح من قول زيد ﷺ: "فألحقتها في سورتها" أن سورتها كانت معروفة، من غير توقف على اجتهاد.

ومخالف أيضا لما أجمعت عليه الأمة أن ترتيب الآيات في كل سورة ترتيب توقيفي من غير تفريق بين سورة نزلت جملة وأخرى نزلت منجمة، يقول الشيخ أحمد شاكر: «وأما حديث عباد بن عبد الله بن الزبير الذي هنا، فإنه حديث منكر شاذ، مخالف للمتواتر المعلوم من الدين بالضرورة أن القرآن بلغه رسول الله لأمته سوراً معروفة مفصلة، يفصل بين كل سورتين منها بالبسملة إلا في "براءة" ليس لعمر ولا لغيره أن يرتب فيه شيئاً، ولا أن يضع آية مكان آية، ولا أن يجمع آيات وحدها فيجعلها سورة، ومعاذ الله أن يجول شيء من هذا في خاطر عمر» (٣).

---

(١) تهذيب التهذيب (٥/٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأحكام، باب: يستحب للكاتب أن يكون أمينا عاقلا، حديث رقم: (٧١٩١).

(٣) مسند الإمام أحمد (٣/٣٤١).

ثانيا: موقفه من ترتيب السور:

أما موقف الجابري من ترتيب السور، فلم يكن –في الظاهر– فيه شطط في اعتقاد أو فكر، فقد سبقه إلى هذا القول جم غفير من العلماء.

لكن الجابري أخطأ إذ جعل المعيار الرئيس هو المعيار الكمي القائم على طول السور وقصرها، وذلك من وجوه:

الأول: أنه إذا كان ترتيب السور اجتهاديا، فإنه لم يكن معيار الترتيب هو المعيار الشكلي، بل كان اجتهادا مبنيا على دليل قولي أو فعلي لرسول الله ﷺ، من تلك الأدلة:

قول النبي ﷺ: «**اقرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**»(١). فذكرهما ﷺ على نسق ترتيبهما في المصحف الشريف.

وقول عائشة –رضي الله عنها–: «**إن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: "قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ "، و"قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ"، و"قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ"، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات**» (٢). فذكرت السور الثلاث على نسق ترتيبها في المصحف الشريف.

وقول ابن مسعود ﷺ في "بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء": «**إِنَّهُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلاَدِي**»(٣). فذكرهن على نسق ترتيبهن في المصحف، ولم يكن ابن مسعود أحد أعضاء اللجنة التي شكلها عثمان.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن، وسورة البقرة، حديث رقم (٨٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل المعوذات، حديث رقم (٥٠١٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن ، حديث رقم (٤٩٩٤).

وغير ذلك من الأدلة الكثيرة التي يعز حصرها.

الثاني: أن هذا العمل المبارك الذي قامت به تلك اللجنة المباركة قد بلغ غاية الدقة والإتقان، وقدر الله تعالى له من التوفيق والسداد ما يعجز اللسان عن وصفه، وأجمعت الأمة على تلقيه بالقبول والثناء عليهم.

والحق أن هذا الترتيب قد أعجز العلماءَ المعرفةُ بدقائقه والإحاطة بأسراره، وقد ألفت فيه مصنفات عدة، ولا يزال بكرا وميدانه مفتوحاً أمام العلماء والباحثين.

الثالث: أن ترتيب أكثر سور القرآن الكريم لم يكن مبنيا على معيار الطول والقصر، فكم من سورة تقدمت في الذكر على ما هي أطول منها، نحو سورة المائدة تقدمت على سورة الأنعام، وهذه تقدمت على سورة الأعراف، وسورة الأنفال تقدمت على سورة التوبة، وسورة يونس تقدمت على سورة هود، وسورة الرعد وإبراهيم والحجر تَقدمن على سورة النحل والإسراء والكهف، وسورة مريم تقدمت على سورة طه، وتأخرت سورة الشعراء عن سورة الأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان، وهي أطول منهن، وتقدمت سورتا لقمان والسجدة على سورة الأحزاب، وهي أطول منهما... إلخ.

فأين المعيار الكمي المزعوم الذي قام عليه ترتيب السور؟!

اللهم إلا في فكر الجابري المغلوط وزعمه الفاسد، لينقض ما أجمعت الأمة على تلقيه بالقبول والإذعان منذ عصرها الأول إلى يومنا هذا.

* **أما إخراجه سورة الفاتحة من إطار هذا الترتيب؛ فلأن مراعاة ترتيبها ينقض قوله**، وذلك من وجوه:

– أنها من قصار السور، وقد قدمت في الذكر على طِوَلها.

– أن ترتيبها ترتيب في أول الذكر الحكيم ترتيب توقيفي، دل على ذلك أن النبي ﷺ سماها "فاتحة الكتاب" مع أنها لم تكن أول ما نزل من القرآن[1]، والدليل على

(١) النقد الفني لمشروع ترتيب ص(١٢٠).

تسميتها ما أخرجه الشيخان عن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**»(١).

وما صح عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ، سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: «**هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ**»، فنزل منه ملك، فقال: «**هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ**»، فسلم، وقال: «**أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ**»(٢).

فدل ذلك على أن ترتيبها لم يكن اجتهاديا، بل كان توقيفيا.

– أن ترتيبها جاء على أحسن الوجوه وأدقها، فهي من القرآن الكريم كالعنوان من الكتاب، والمقدمة من الخطاب، حيث اشتملت على مقاصد القرآن الكريم جملةً في أسلوب يعجز الثقلان عن الإتيان بمثله.

فلو أن الجابري نظر بعين الإنصاف في الحكمة من هذا الترتيب لها أول القرآن الكريم لأيقن بأنه جاء على أدق الوجوه وأحكمها، وأنه مستمد من أقوال النبي ﷺ وأفعاله نصا أو استنباطا.

*** أما استدلاله بحديث ابن عباس، فهو مردود؛ لأنهخ الحديث ضعيف، لا ينهض لدرجة قبوله والاستدلال به؛ لأن مداره على على يزيد الفارسي، وهو مجهول**(٣).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأذان، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، حديث رقم (٧٥٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، حديث رقم (٣٩٤)، واللفظ لهما.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، حديث رقم (٨٠٦).

(٣) يقول الشيخ أحمد شاكر: «في إسناده نظر كثير، بل هو عندي ضعيف جداً، بل هو حديث لا أصل له، يدور إسناده في كل رواياته على "يزيد الفارسى".... ويذكره البخاري في الضعفاء، فلا يقبل منه مثل هذا الحديث، ينفرد به، وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن، =

وعلى فرض أن الحديث يرقي إلى درجة الصحة -كما ذهب إليه الإمام الترمذي وابن حبان والحاكم والذهبي وغيرهم من أئمة الحديث- فلا دلالة فيه على أن عثمان ﷺ قرن بين السورتين باجتهاد منه فقد أخرج النحاسُ الحديثَ وزاد فيه: قال عثمانﷺ: «**فظننت أنها منها**، قال: **وكانتا تدعيان في زمن رسول الله ﷺ القرينتين، فلذلك جعلتهما في السبع الطوال**»(١).

وهذه الزيادة توضح مراد عثمان ﷺ بقوله: "**فمن أجل ذلك قرنت بينهما**"، وهو صريح بأن قرنه بينهما لم يكن باجتهاده ﷺ، وإنما كان الاقتران بينهما شائعا ذائعا في العهد النبوي، بما نجزم القول بأنه كان على مسمع من رسول الله ﷺ.

كذلك الحديث حجة عليه لا له، وذلك أنه لو كان معيار ترتيب السور هو الطول والقصر لكان الأحرى باللجنة تقديم سورة براءة على سورة الأنفال.

تناقض لا مبرر له

الجابري إذ يحلل وينقض ترتيب سور القرآن الكريم، يقر بأن هذا الترتيب كان معروفا ومتداولا في العهد النبوي(٢)، بدليل قول النبي ﷺ: «**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ الطِّوَالَ، وَمَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَمَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**»(٣).

فإذا كان هذا الترتيب معروفا ومعمولا به قبل وفاته ﷺ، فكيف يكون اجتهاديا فضلا عن كونه خاليا عن أي مضمون فكري؟!

=الثابتة بالتواتر القطعي، قراءة وسماعاً وكتابة في المصاحف، وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه، وحاشاه من ذلك، فلا علينا إذا قلنا إنه "حديث لا أصل له" تطبيقاً للقواعد الصحيحة التي لا خلاف فيها بين أئمة الحديث» أ.هـ (مسند الإمام أحمد (١/٣٣٢،٣٣٣)، بتصرف)

(١) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس (٢/٣٩٨)، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٩٩١م.

(٢) مدخل إلى القرآن ص(٢٣٥).

(٣) حسن: أخرجه أحمد في مسنده (١٣/٢٢٢)، حديث رقم (١٦٩١٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/٧٥)، حديث رقم (١٨٦)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (٢/٣٥١)، حديث رقم (١١٠٥)، عن واثلة بن الأسقع ﷺ، من طريق عمران القطان عن قتادة، وهو صدوق يهم (تقريب التهذيب لابن حجر ص٤٢٩).

وأخرجه الطبري في جامع البيان (١/١٠٠)، من طريق رواد بن الجراح عن قتادة، وهو صدوق اختلط بأخرة فترك (تقريب التهذيب لابن حجر ص٢١١)

المطلب الثاني: ترتيب الجابري لآيات القرآن الكريم وسوره.

ما كان الجابري ليروق له ولا للمدرسة التي يستقي منها مبانيه الفكرية هذا الترتيب الرباني لآيات وسور القرآن الكريم التي خرق بها حواجز الزمان والمكان؛ ليكون وحده مصدر هداية للبشرية جمعاء ومناط إعجاز لهم، حتى راح –بعد محاولة يائسة لهدم هذا الترتيب– يعيد ترتيبها ترتيبا يقف به عند حواجز الزمان والمكان الذي نزل فيه، لا يتعداها.

وقد انطلق الجابري من اعتبارين رئيسين:

الأول: أن القرآن الكريم ظاهرة، يعتريها ما يعتري سائر الظواهر من البدء بالظهور، ثم النمو، ثم التطور، ثم بلوغ درجة الكمال، فيقول: «المعروف المؤكد أنه (أي: القرآن الكريم) نزل منجما؛ أي: خرج إلى مجال الوجود بصورة متدرجة.... (فالتعرف عليه يبدأ من) محاولة **فهم المراحل التي قطعها منذ بداية نزوله حتى أصبح كما هو الآن في المصحف**، إن هذا النوع من التعامل يهتم بالتعرف على كيان النص، وذلك من خلال **رصد عملية نموه الداخلي من جهة**، ومن خلال تتبع الكيفية أو الكيفيات التي تَمَّ التعامل بها معه خلال **مسيرته نحو اكتمال وجوده بين الناس كنص نهائي مصون عن الزيادة والنقصان**»[1].

الثاني: أن تنزيل القرآن كان مسايرا لتطور الدعوة في عهديها المكي والمدني.

وذلك أن الدعوة الإسلامية منذ ظهرت في مكة أخذت تشق طريقها نحو الانتشار، فما تركت بيتا من بيوتها إلا دخلته، فخشي صناديد قريش من مغبة انتشارها فقاوموها، ومن ثَمَّ وقع نزاع وشقاق بينهم وبين النبي ﷺ، فاضطر النبي ﷺ أن يتخذ مسارا جديدا في دعوته، وهو الخروج بها عن محيط قريش بمكة، فبدأ يدعو الناس في الأسواق، ولم يقف أهل مكة إزاء هذا التطور في مسار الدعوة مغلولي الأيدي، بل كثفوا حملاتهم ضد دعوته لصد الناس عنه، وآذوا أتباعه، فأمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى الحبشة خشية عليهم، ولم يجد الكفار بدا من حصار بني هاشم.

(١) مدخل إلى القرآن ص(٢٠)، بتصرف.

وما إن انتهى الحصار حتى واصل النبي ﷺ عرض دعوته على القبائل في الأسواق وخارج مكة، لا بقصد دعوتهم إلى الإسلام، بل بحثا عن قبيلة تؤويه وتنصره، فاستجاب له أهل يثرب، ووقعت بيعة العقبة الأولى، وبها بدأ الترتيب للهجرة المباركة إلى المدينة المنورة، وفيها أسس النبي ﷺ دولته ووطد أركانها، ثم انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

فراح الجابري يقسم تلك المسيرة الدعوية إلى مراحل، وضم تحت كل مرحلة منها جملة من السور، يتناسب أسلوبها وما اشتملت عليه من معانٍ مع طبيعة الأحداث الجارية في كل مرحلة.

وقد اعتمد الجابري في ترتيبه للآيات والسور على معطيات ثلاثة:

الأول: الروايات المتعلقة بأسباب النزول وبأحداث السيرة النبوية، وقد اعتبر أن لكل آية سببا، ارتبط به نزولها، فقال: «قد لا نجافي الصواب إذا نحن قلنا -مع بعض القدماء-: إنه ما من آية في القرآن إلا ومن ورائها سبب لنزولها»(١).

ويقول: «والسور نفسها مكونة من آيات مرتبطة -في كثير من الحالات- بوقائع منفصلة، هي أسباب النزول»(٢).

الثاني: ما اشتملت عليه السور الكريمة من معطيات، تتمثل في خصائص أسلوبها، ومعانيها التي تتناسب مع طبيعة المرحلة الدعوية التي تنتمي إليها السورة.

فإن تعارضت الروايات مع معطيات السورة، رتب السورة بناء على معطياتها؛ لأن ذلك أنسب لتحقيق النتائج المتوخاة من وراء ترتيبه، فيقول: «فإن الاعتماد على المرويات وحدها لا يكفي في الوفاء بغرضنا، فلا بد إذاً من توظيف المنطق في عملية استثمار المواد التي يقدمها المأثور»(٣).

الثالث: أن السورة وحدة واحدة لا تتجزأ، فما كان ينزل شيء من السورة حتى تنتهي السورة التي نزلت قبلها، ويتم غلقها، أما القول بأن السورة تكون مفتوحة -ربما مدة طويلة من الزمن- فهو قول قائم على الظن والتخمين، فيقول: «وفي ترتيبنا

(١) مدخل إلى القرآن ص(٤٣٠).
(٢) المرجع السابق ص(٢٤٣).
(٣) مدخل إلى القرآن ص(٢٤٤).

راعينا... الاحتفاظ بوحدة السورة متحررين مما ترسخ من تصنيفات لا شيء يؤسسها سوى الظن والتخمين، مثل القول بآيات مدنية داخل سور مكية أو العكس»[1].

وقد استثنى الجابري من ذلك سورتي العلق والمدثر، فقد نزلتا في مرحلتين متتابعتين من مراحل الدعوة في مكة.

مراحل المسيرة الدعوية، وما تضمنته كل مرحلة من سور.

قسم الجابري المسيرة الدعوية في عهديها المكي والمدني إلى سبع: ست منها في مكة، وواحدة في المدينة:

المرحلة الأولى: سرية الدعوة.

لم يقصد الجابري من سرية الدعوة إخفاءها عن أسماع قريش، ولكن المراد بها دعوة الناس أفرادا لا جماعات، وإلَّا فكيف علمت قريش بدعوة محمد ﷺ[2]، ولم يتجاوز موقف قريش منها الاستهزاء بالنبي ﷺ واتهامه بالجنون، وكان لهذه المرحلة الدعوية خصائصها التي انعكست آثارها على القرآن الكريم، وتتمثل فيما يأتي:

- قصر آياتها.
- الخطاب فيها كان عن النبي ﷺ أو كان موجها إلى النبي ﷺ[3]، تهيئة له لتحمل أعباء الدعوة، وتثبيتا لفؤاده.
- استعمال لفظ الرب أول الأمر، ثم استعمال لفظ "الله"، الذي بدأ ظهوره أول ما ظهر في سورة الإخلاص؛ إثباتا لوجوده ووحدانيته.

فكان الخطاب في هذه المرحلة يدور في فلك هذه المحاور الثلاث: النبوة والربوبية والألوهية[4].

- عدم التعرض لإبطال عقائد المشركين؛ إذ كان يحدو برسول الله ﷺ الأمل في إيمان قومه، ومن ثَمَّ لم يتعرض لهم استمالة لقلوبهم.

(١) فهم القرآن الحكيم (٣/٣٦).
(٢) مدخل إلى القرآن ص(٢٥٠).
(٣) مدخل إلى القرآن ص(٢٥١).
(٤) فهم القرآن الحكيم (١/١٩).

– أنه لا يطلق لفظ "المؤمنون" أو "المسلمون" على الجماعة التي استجابت لدعوة النبي ﷺ مقابل لفظ "الكافرون"، وإنما ستعمل لفظ "من تزكى"، أو لفظ "الأتقى"[(١)].

وتضم هذه المرحلة السور الآتية على الترتيب: (**سورة العلق "خمس آيات من أولها"، المدثر "عشر آيات من أولها"، المسد، التكوير، الأعلى، الليل، الفجر، الضحى، الشرح، العصر، العاديات، الكوثر، التكاثر، الماعون، الكافرون، الفيل، الفلق، الناس، الإخلاص، الفاتحة، الرحمن، النجم، عبس، الشمس، البروج، التين، قريش**).

المرحلة الثانية: البعث ومشاهد القيامة.

تعد هذه المرحلة بداية لتوتر العلاقة بين مشركي قريش ومحمد ﷺ، فبعد أن كان موقف قريش لا يتجاوز الاستهزاء والسخرية، وكان النبي ﷺ مأمورا بالإعراض عن أفراد منهم خاصة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾[(٢)]، بلغ موقفهم درجة التكذيب، فأُمر النبي ﷺ بالإعراض عنهم كلية بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾[(٣)][(٤)]، وقد انعكس آثارها على القرآن الكريم، فامتاز بما يأتي:

– التركيز على موضوع المعاد والبعث ومشاهد القيامة كسلاح يرهب به المكذبين من قريش، خاصة أصحاب الثروات المالية التي استخدمتْ ثراءها في وجه الدعوة ضد الفقراء والمساكين والمستضعفين[(٥)].

– انتقل الخطاب فيها –في أغلب الأحيان– من خطاب النبي ﷺ إلى خطاب أعدائه[(٦)].

– أن هذه المرحلة كانت بداية لإطلاق لفظ "المسلمين" على أتباع محمد ﷺ؛ لأن معنى الإسلام هو: الاستسلام والخضوع، وهو ما يعني الخضوع لسلطة جماعة أو دولة، فبعد أن صار من استجابوا للدعوة المحمدية جماعة لها رئيس تخضع له، وهو محمد

(١) المرجع السابق (١/١١٥).
(٢) سورة النجم، من الآية: ٢٧.
(٣) سورة القمر، من الآية: ٦.
(٤) فهم القرآن الحكيم (١/١٨٠).
(٥) المرجع السابق (١/١٨٣).
(٦) المرجع السابق (١/١٦٠).

ﷺ، وانتظمت حوله فردا فردا، وقد انفصلت عن قريش، ثم بدأ بعد ذلك وصف هؤلاء بـ"الذين آمنوا" في سورة العصر، ثم "المؤمنين" في سورة البروج[١].

وتضم هذه المرحلة السور الآتية على الترتيب: (**القارعة، الزلزلة، القيامة، الهمزة، المرسلات، ق، البلد، بقية العلق، بقية المدثر، القلم، الطارق، القمر**).

المرحلة الثالثة: إبطال الشرك، وتسفيه عبادة الأصنام.

بدأت هذه المرحلة بقراءة النبي ﷺ سورة النجم على أسماع قريش بالكعبة، وتبعه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بقراءته سورة الرحمن، حيث بلغت عداوة مشركي قريش –في هذه المرحلة– للنبي ﷺ وأصحابه ذروتها، فخاض النبي ﷺ حربا شرسة ضد الشرك وعبادة الأصنام، مما حمل كبار مكة على التدخل مع أبي طالب عم النبي ﷺ ليمنع ابن أخيه عن تسفيه أحلامهم وسب آلهتهم[٢].

وقد اشتد اضطهاد قريش لأتباع النبي ﷺ، وتعذيبهم لهم، فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة فرارا من وجه الظلم والاضطهاد، وقد استمرت تلك المرحلة قرابة سنتين إلى حدود السنة السابعة من البعثة[٣].

وتمتاز الآيات والسور من حيث الشكل بطولها، ومن حيث الأسلوب بالأسلوب الجدلي البياني، ومن حيث المضمون بالتركيز على العقيدة وسب الشرك وعبادة الأصنام، وتوظيف قصص الأنبياء وما حل بأقوامهم المكذبين في تسلية النبي ﷺ وتثبيت فؤاده، وفي تهديد قريش، مع حضور متفاوت للنبوة والبعث[٤].

وتضم هذه المرحلة السور الآتية على الترتيب: (**ص، الأعراف، الجن، يس، الفرقان، فاطر، مريم، طه، الواقعة، الشعراء، النمل، القصص، يونس، هود، يوسف**)

المرحلة الرابعة: الصدع بالأمر، والاتصال بالقبائل.

وتحمل هذه المرحلة رحلة الدعوة خارج نطاق قريش التي اشتد إيذاؤها لأتباع النبي ﷺ، ومراقبة كل قبيلة منها لأفراد أبنائها لئلا يتبعوا محمدا ﷺ، فنزلت سورة الحجر التي

(١) المرجع السابق (١/١٧٠).
(٢) مدخل إلى القرآن ص(٢٥١)، فهم القرآن الحكيم (١/١٧٠).
(٣) مدخل إلى القرآن ص(٢٥٢).
(٤) فهم القرآن الحكيم (١/١٩٩، ٢٠٧)، (٢/٩).

اختتمت بقوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾، لتبدأ مرحلة جديدة، وهو الإعراض عن المشركين من جهة، وعدم التوقف بالدعوة عند حدود الأقربين من عشيرته ﷺ من جهة أخرى، الشيء الذي يعني الاتجاه بها إلى القبائل العربية التي تقطن خارج مكة، والتي تحج إليها في المواسم الدينية وفي مواعيد الأسواق[1]، وقد استمرت تلك المرحلة قرابة سنتين[2].

وتضم هذه المرحلة السور الآتية على الترتيب: (**الحجر، الأنعام، الصافات، لقمان، سبأ**).

المرحلة الخامسة: حصار النبي ﷺ وأهله في شعب أبي طالب.

وهذه المرحلة تأتي عقيب بلوغ اليأس مداه في نفوس كفار قريش أن يكف محمد ﷺ عن سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، وانحياز أبي طالب إلى ابن أخيه، وتهديده إياهم بحرب أهلية لا تبقي ولا تذر، فكتبوا بينهم وبينه كتابا يقضي بحصاره هو ومن انضم إليه من بني هاشم وبني المطلب، وقد هاجر معظم أتباعه قبيل الحصار أو أثنائه، وقد استمر هذا الحصار مدة ثلاث سنوات يبدأ من مطلع العام السابع من البعثة حتى مطلع العام العاشر منها.

وقد تميزت السور النازلة في هذه المرحلة بطابع التذكير مع نوع من الاختصار وتنوع في الصياغة، مع نزوع من حين لآخر إلى تثبيت فؤاد النبي ﷺ وحثه على الصبر، والتأكيد على أن النصر له في نهاية المطاف[3].

وتضم هذه المرحلة السور الآتية على الترتيب: (**الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف**).

المرحلة السادسة: ما بعد الحصار: مواصلة الاتصال بالقبائل، والاستعداد للهجرة إلى المدينة.

لم يستمر حصار النبي ﷺ ومن معه من بني عمومته (بني هاشم وبني المطلب) أكثر من ثلاث سنوات، بسبب أن النظام القبلي عند العرب لم يكن يحكمه المنطق

(١) فهم القرآن الحكيم (٢/١٠،١١).
(٢) المرجع السابق (٢/٨١).
(٣) المرجع السابق (٢/٣٨٩).

وحده، بل وجدان القبيلة كان عاملا مؤثرا في توجهها، فعدم تحمس كثير من أقارب الهاشميين للحصار وتأثرهم بآلام أقاربهم فتح أبواب التعاون السري بينهم.

كما أن هذا الحصار لم يكن ملزما لغير قريش من القبائل مما سمح باتصال الهاشميين بالقبائل حولهم على الرغم من ضغوط قريش عليهم، فأدى ذلك كله إلى فشل هذا الحصار وتمزيق الصحيفة المبرمة بينهم.

وبعد فشل هذا الحصار واصل النبي ﷺ اتصاله بالقبائل، لا ليخاطب الجمهور كما كان يفعل قبل الحصار، بل بحثا عن قبيلة يتحالف معها على أن تنصره وتدافع عنه، فكانت النتيجة أن تحالف مع وفد يثرب، وبدأ الترتيب للهجرة إليهم(١).

وقد تميز الخطاب القرآني في هذه المرحلة بما يلي:

– التركيز على محور المعاد لمواجهة الضغوط القاسية التي مارسها كفار مكة على النبي ﷺ.

– الانتقال إلى لون جديد من ألوان الخطاب، وهو الخطاب الأخلاقي التشريعي الذي يرسم ما ينبغي أن يكون عليه سلوك جماعة المسلمين أفرادا وجماعات(٢).

وتضم هذه المرحلة السور الآتية على الترتيب: (**نوح، الذاريات، الغاشية، الإنسان، الكهف، النحل، إبراهيم، الأنبياء، المؤمنون، السجدة، الطور، الملك، الحاقة، المعارج، النبأ، النازعات، الانفطار، الانشقاق، المزمل، الرعد، الإسراء، الروم، العنكبوت، المطففين، الحج**).

المرحلة السابعة: مسيرة الدعوة في العهد النبوي.

القرآن في العهد المدني يمثل مرحلة واحدة، لا يمكن تقسيمها؛ لتعدد أطراف الخطاب فيه، فإذا كان في العهد المكي موجها إلى أحد أطراف ثلاث: النبي ﷺ والمسلمين، والمشركين، فإنه في العهد المدني تعددت أطرافه، ليشمل أيضا اليهود، والنصارى، والأعراب، والمنافقين، والنساء، وأزواج النبي ﷺ... إلخ.

وقد تميزت السور القرآنية في هذه المرحلة بما يأتي:

– أنها تختلف طولا وقصرا.

(١) فهم القرآن الحكيم (٢/١٧٧).
(٢) المرجع السابق (٢/٣٩٠).

– أن السورة الواحدة تتناول موضوعات مختلفة، ظرفية في الغالب؛ أي: أنها تتحدث عن موضوعات خاصة بالظرف الذي نزلت فيه، فالعموم والخصوص الوارد فيها، له مفهوم خاص، وهو العموم الخاص بالزمن الذي نزلت فيه الآيات والسور.

– أن ترتيب السور في الغالب خاضع لتواريخ الأحداث التي تتحدث عنها[1].

وتضم هذه المرحلة السور الآتية على الترتيب: (**البقرة، القدر، الأنفال، آل عمران، الأحزاب، الممتحنة، النساء، الحديد، محمد، الطلاق، البينة، الحشر، النور، المنافقون، المجادلة، الحجرات، التحريم، التغابن، الصف، الجمعة، الفتح، المائدة، التوبة، النصر**).

اضطراب في ترتيب السور عند الجابري.

ذلكم هو ترتيب السور الذي سار عليه الجابري في كتابه "فهم الكتاب الحكيم"، لكن نجد حالة من التخبط تنتابه في ترتيبه، فقد خالف نفسه في كتابه

المناقشة والرد

القرآن الكريم كتاب الله عز وجل، أنزله الله على نبيه محمد ﷺ، لهداية البشرية جمعاء، منذ أنزله الله –تعالى– إلى قيام الساعة.

تلك هي الحقيقة الثابتة، التي دل عليها القطعي من الدلائل الشرعية والعقلية، وتلقتها الأمة بالقبول والإجماع عليها، فأي محاولة لردها أو زعزعة الثقة فيها، فإنها محاولة مقطوع ببطلانها، لمخالفتها للقطعيات من الأدلة.

ذلك ما رام إليه الجابري في طرحه لإحدى القضايا القرآنية، وهي ترتيب آيات وسور القرآن الكريم وفق زمن نزولها، يتضح ذلك من خلال مناقشته –إجمالا وتفصيلاً– في الأسس التي بنى عليها مشروعه وفي النتائج التي توصل إليها:

أما الرد عليه إجمالاً فإنه ترتيب مبني على التخمين والظن، ولا دليل عليه من نقل أو عقل، ولا أدل على ذلك من موقف الجابري نفسه، حيث ناقض نفسه، فقد خالف نفسه في كتابه في كتابه "فهم القرآن الحكيم" –وهو ما سبق ذكره– عما سار عليه في كتابه "مدخل إلى القرآن"[2]، فجعل المرحلة الخامسة –في المدخل– من مراحل

(١) فهم القرآن الحكيم (٣/٣٦).
(٢) مدخل إلى القرآن ص(٢٥٣، ٢٥٤).

الدعوة في مكة، وهي مرحلة الحصار، تضم السور الآتية على الترتيب: الحواميم السبعة: (**غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف**)، **الأنعام، الذاريات، الصافات، النازعات، الانشقاق، الانفطار**.

كما جعل المرحلة السادسة، وهي مرحلة ما بعد الحصار، تضم السور التالية هي: **الطارق، الجن، القمر، ص، الأعراف، الإسراء، الأنبياء، إبراهيم، يوسف، يونس، هود، القصص، النمل، الشعراء، الحجر، الروم، العنكبوت**.

ولا دلالة عندي على هذا التناقض سوى أنها محاولة باءت بالفشل، لعدم استنادها على منقول أو معقول.

أما تفصيلاً، فيظهر من خلال النقاط التالية:

أولاً: اعتباره القرآن الكريم ظاهرة:

فقد اعتبر الجابري القرآن الكريم ظاهرة تسير عليها سنن سائر الظواهر، وهو أمر يتنافى مع الكمال المطلق لكتاب الله تعالى وقدسيته، ويتجاهل تاريخ القرآن الكريم قبل نزوله على النبي ﷺ، وبيان ذلك:

أن القرآن الكريم كلام الله قديم، أنزله في اللوح المحفوظ بتمامه وكماله جملة واحدة، قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢ ﴾[1].

ثم أنزله جملة واحدة كذلك إلى بيت العزة في السماء الدنيا في الليلة المباركة ليلة القدر؛ كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما[2].

(١) سورة البروج، الآيتان: ٢١،٢٢.

(٢) صحيح: أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٢٤٧/٧)، كتاب: فضائل القرآن، باب: كم بين نزول أول القرآن وبين آخره، حديث رقم (٧٩٣٧)، والحاكم في المستدرك (٢٤١/٢، ٢٤٢)، باب:، أحاديث رقم (٢٨٧٧ : ٢٨٨١)، وصححها، ووافقه الذهبي، والطبراني في المعجم الكبير (٣٢/١٢)، حديث رقم (١٢٣٨١)، وابن الضريس في فضائل القرآن ص(٧٣).
وانظر: النكت والعيون للماوردي (٢٤٤/٥)، والتفسير الكبير لفخر الدين الرازي (٦٥٤/٢٧)، والتفسير الحديث لمحمد عزة دروزة (٥٣٧/٤)، ومناهل العرفان (٤٥/١، ٤٦).

دل على ذلك قوله جل وعلا: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾[2].

ووجه دلالة الآيات على نزوله جملة واحدة: أن المتبادر من عود ضمير الغيبة في قوله: "هُوَ قُرۡءَانٌ"، وقوله: "أَنزَلۡنَٰهُ" أنه يعود إلى القرآن الكريم كله[3].

فهو بالغٌ درجةَ الكمالِ المطلق قبل نزوله على النبي ﷺ وبعد اكتمال نزوله على حد سواء، قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[4].

وقال جل وعلا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا﴾[5].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾[6].

فإذا كان القرآن الكريم كتابا كاملا بذاته قبل نزوله على النبي ﷺ وبعد نزوله، فمن الخطأ السافر تفسير تنجيمه بالظهور ثم النماء ثم التطور...إلخ، كما زعم الجابري.

إن مثل نزول القرآن منجما، كمثل عالم عكف في محرابه، فألف كتابا جمع فيه ما يصلح حال مجتمعه، فكلما جاءه أحد مسترشدا، دله على أنفع ما يصلحه منه، ثم جمع تلك النصائح على وفق ترتيب كتابه، فهل تعد نصائحه المرة تلو الأخرى تطوراً.

فالقرآن الكريم كان قبل نزوله على النبي ﷺ مجموعا في سفر واحد، ولما اكتمل نزوله عليه ﷺ ودل صحابته على موضع كل نجم من نجومه، صار موافقاً على وفق ترتيبه قبل النزول.

ثانيا: دعواه مساوقة التنزيل لتطور الدعوة.

قبل أن نحكم على تلك الدعوى بالصحة أو البطلان، لا بد من وضعها في القالب المناسب لها عند الجابري، وذلك يستلزم منا استحضار الأساس الذي قامت

(١) سورة الدخان، الآيات: ١:٣.
(٢) سورة القدر، الآية: ١.
(٣) معالم التنزيل للبغوي (١٧٢/٤)، والتفسير الحديث (٥٣٧/٤).
(٤) سورة هود، الآية: ١.
(٥) سورة الكهف، من الآيتين: ١،٢.
(٦) سورة الزمر، الآيتان: ٢٧،٢٨.

عليه الماركسية –وهي المدرسة الفكرية التي ينتمى إليها الجابري– وهو الإيمان المطلق بالمادة، فالمدرسة الماركسية تؤمن بها، ولا تسلم بشيء سواها، والنتيجة الحتمية لهذا الإيمان أمران:

الأول: أنها أقامت علاقة القطيعة بينها وبين العالم الغيبي، وبعبارة "لينين": "أي دفاع أو تبرير لفكرة الله –مهما كان جيدا، ومهما حسنت نواياه– هو تبرير للرجعية"

الثاني: أنها الأساس الذي شكل الواقع بجميع جوانبه: الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، حتى صاغت الماركسية نظريتها: "البناء الفوقي، والقاعدة المادية"، فكل فكر هو من تشكيل المادة والواقع، ثم يعود هذا الفكر ليؤثر في الواقع، في علاقة جدل مستمر، صاعد من الواقع، وعائد للتأثير في الواقع(١).

فإذا كان الجابري يقصد بـ"**مساوقة التنزيل لتطور الدعوة**" كون التنزيل انعكاسا للواقع وأثرا عنه، فإن النتيجة حينئذ تكون كارثية؛ لأنه بذلك ينفي ربانية القرآن الكريم.

وإذا كان يقصد بها أن القرآن الكريم نزل ليعالج قضايا الواقع، في حقبة زمنية لا يتعداها، فهو بذلك ينفي عن القرآن الكريم أهم خصائصه، وهو كونه هداية عالمية باقية بقاء الزمان والمكان.

إذاً عبارة الجابري "**مساوقة التنزيل لتطور الدعوة**" تتردد بين احتمالين، كلاهما باطل:

الأول: كون القرآن الكريم انعكاسا للواقع وصدى له.

الثاني: كونه منزلا لمعالجة قضايا المكان والزمان الذي نزل فيه، منغلقا عليها، لا يتعداها إلى غيرها.

وكلا الاحتمالين باطل؛ لأن الاحتمال الأول لا يقول به مسلم، لأنه يقتضي الكفر.

والاحتمال الثاني خروج بالقرآن الكريم عن المقصد من تنزله، وهو كونه هداية للبشرية جمعاء، غير محصور بزمن، ولا قاصر على جيل، إلى القول بتاريخية النص القرآني، وهو ما صرح به الجابري بقوله: «..وهذا يفسح المجال لفهم أفضل لما اصطلح

(١) التفسير الماركسي للإسلام للدكتور محمد عمارة ص(٣٤، ٣٥)، الموسوعة الفلسفية ص(٣٦٧، ٤٣٢).

عليه بـ"العموم والخصوص"، فالعام سيكون ليس هو ما ورد لفظه في الصيغة اللغوية التي تفيد العموم مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، إذ ما ترد مثل هذه الصيغة والخطاب فيها موجه إلى البعض دون البعض، وكذلك الشأن في عبارات أخرى من قبيل ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾[1]، و﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾[2] ...إلخ والتي تخاطب المسلمين زمن الرسول وقت إعلان الحرب مع مشركي مكة، فالعموم في مثل هذه الآيات مقيد بخصوص زمن نزولها ومناسبته»[3].

وأصرح من ذلك قولُه: «القرآن كتاب تاريخي، وللتعامل معه لا بد من فكر تاريخي متتبع لتطور الثقافة العربية، وخصوصا الجانب الكلامي والفقهي»[4].

وهذا زعم باطل، وتجنٍ بغير علم، يرده قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[5].

وقوله جل وعلا: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾[6].

وقوله جل شأنه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[7].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾[8]، فالقرآن الكريم كتاب هداية، غير قاصرة على الجيل الذي نزل فيهم.

وما الواقع الذي عالجه القرآن حين نزوله إلا مفردة من مفرداته التي شملها، وحلقة من حلقاته التي أحاطها تنظيما، يقول د.محمد عمارة: «من حق الباحث أن يسأل:

هل القرآن كتاب تأريخ لمسار الدعوة المحمدية؟! أم أنه كتاب هداية للدين والآخرة، للفرد والأمم والشعوب عبر الزمان والمكان؟!

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢١٦.
(٢) سورة النساء، من الآية: ٨٩.
(٣) فهم القرآن الحكيم (٣/٣٧٠)، بتصرف.
(٤) مواقف ٥٩، ص(١١)، نقلا عن الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن ص(٥٣).
(٥) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٦) سورة يوسف، من الآية: ١٠٤.
(٧) سورة الأعراف، من الآية: ١٥٨.
(٨) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

وأن مسار الدعوة المحمدية هو مجرد "مفردة" من مفردات هذا القرآن الكريم؟ وأن الترتيب الجابري للقرآن كي يكون تأريخا لمسار الدعوة المحمدية، قد يفضي إلى ربطه بهذا التأريخ، ومن ثَمّ يفتح باب "التاريخية والتاريخانية" التي تحيل القرآن الكريم إلى "الاستيداع" بعد طوي التاريخ صفحات الأحداث التي مثلت مسار الدعوة الإسلامية، والتي حدثت قبل نحو خمسة عشر قرنا»[(١)].

إذاً الأصل الذي بنى عليه الجابري مشروعه –وهو كون القرآن ظاهرة، وربط تنزيله بمسار الدعوة، بالمعنى الذي قصده الجابري– هو أصل باطل، ترتب عليه بطلان كل ما نتج عنه.

ثالثاً: اعتباره أن لكل آية سبب نزول:

هو أمر خالف فيه الواقع تمام، فإن أقصى ما ارتبط نزوله من الآيات بأسباب خاصة، لا يتجاوز عددها (٨٨٨) آية؛ أي ما يعدل ١٤.٢٪، وأما غيرها فلم يرتبط نزولها بشيء من أسباب النزول.

ولا بد من الوضع في الاعتبار أنَّ من أسباب النزول ما سنده ضعيف لا يعول عليه، ومنها ما سنده صحيح لكنه غير صريح في الدلالة على السببية، فعند التحقيق ثبت أن الآيات التي ارتبطت بأسباب نزول لا تعدو أن تكون (٤٧٢) آية؛ أي: ما يعدل ٧.٥٪ من جملة آيات القرآن كله[(٢)].

ذلك مع شدة عناية الصحابة واهتمامهم البالغ كل ما يتعلق بالقرآن الكريم، فعن ابن مسعود ﷺ قال: «والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل لركبت إليه»[(٣)].

---

(١) رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم ص(٣٨، ٣٩).

(٢) سقوط الغلو العلماني للدكتور محمد عمارة ص(٢٥٥)، أسباب النزول –تجديد مفاهيم ورد شبهات– للدكتور محمد سالم أبو عاصي ص(١١٢، ١١٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ، حديث رقم (٥٠٠٢)، واللفظ له، ومسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله تعالى عنهما، حديث رقم (٢٤٦٣).

وعن علي ﷺ أنه قال: «والله، ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت، إن ربي وهب لي قلبا عقولا، ولسانا طلقا»(١).

والجابري ذاته –الذي اعتبر أن لكل آية سبب نزول معتمدا عليه في ترتيب السور– عاد لينقض نفسه، مؤكِّدا أن ما هو متداول من أسباب النزول قليل جدا بالنسبة لآيات القرآن، فيقول: «منه (أي: من القرآن) ما أنزل ابتداء، كخطاب يشرح العقيدة أو كقصص أو كنصوص تشريعية أو أخلاقية ... إلخ، وهذا الصنف لا يتعلق في الغالب بأسباب أو مناسبات خاصة، وبالتالي فهو ليس مما يرجع فيه إلى "أسباب نزول"، على الرغم من قول بعضهم: "إنه ما من آية في القرآن إلا ولها سبب لنزولها"، إن عنصر المبالغة في هذه العبارة واضح، ذلك لأن ما هو متداول من "أسباب النزول" **قليل جدا بالنسبة لآي الذكر الحكيم**»(٢).

بل نجده يشكك في مصداقية ما ورد منها؛ أي: من أسباب النزول، فيصفها تارةً بأنها محتملة، وتارة بأنها مصطنعة، وأخرى بأنها ظنون(٣)، فيقول: «إن "أسباب النزول" كما هي مدونة في التفاسير أو في الكتب الخاصة بها أو في كتب علوم القرآن تحمل الباحث الناقد على الشك في مصداقية كثير منها»(٤).

ويقول –في معرض تقديمه لسورة القلم–: «وما تردد في الروايات الخاصة بها هو كون آيات منها نزلت في المدينة، والآيات التي قالوا إنها مدنية لا سند لهم فيها إلا كونها **تحتمل أن تكون أسباب نزولها أمورا حدثت في المدينة، وهذا ما جرت عليه عادتهم** في البحث عن أسباب لنزول هذه الآية أو تلك من خلال استعراض الواقع»(٥).

ويقول –في تقديمه لتفسير سورة الحجر–: «قد وردت عدة أخبار عن "سبب نزول" آيات من هذه السورة تكاد تكون كلها مصطنعة»(٦).

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣٣٨/٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩٨/٤٢).
(٢) فهم القرآن الحكيم (٣٧٠/٣)، بتصرف.
(٣) مدخل إلى القرآن ص(٢٤٥).
(٤) فهم القرآن الحكيم (٣٧١/٣).
(٥) فهم القرآن الحكيم (٢٩/٢).
(٦) المرجع السابق (٢٩/٢).

والخلاصة: أن موقف الجابري من أسباب النزول هو موقف المتردد الحائر بين قبولها وردها؛ فهو تارة يعتبر أن لكل آية سببا لنزولها، وأخرى يعد ما ورد منها قليل بالنسبة للآيات التي لم يرتبط نزولها بسبب، وأخرى يشكك في مصداقيتها، فيعدها محتملة، أو ظنون أو مصطنعة.

فهو بذلك نقض نفسه بنفسه، وهدم الأساس الذي بنى عليه مشروعه، فلم يعدُ ذلك المشروع أن يكون ضربا من الظنون والتخمينات(١).

رابعاً: اعتباره أن السورة وحدة واحدة لا تتجزأ:

وهذا قول حق، فلكل سورة في القرآن الكريم موضوع رئيس تدور حوله، وكثير من السور ما يضم موضوعات متعددة، وارتبطت جميعها بموضوعها الرئيس ارتباط الجزء بالكل، واللبنة الواحدة بالبناء الكامل.

لكن الجابري أخطأ إذ اتخذ من وحدة السورة مدخلا للقول بنزولها جملة واحدة، أو نجوما متقاربة النزول بحيث لا يتخللها نجم آخر في سورة أخرى -كما ادعى ذلك في سورة البقرة (٢)- فإنه لا ارتباط بينهما؛ أعني: وحدة السورة ونزولها جملة، فقد صح النقل أن كثيرا من سور القرآن الكريم نزل نجوما في أزمنة متباعدة، ومناسبات مختلفة، مع ما شملته من موضوعات متنوعة، قد ربط بينها رباط عام، وهو ما دارت حوله السورة من موضوع رئيس، حتى بدت السورة كأنها لحمة واحدة، فقد أُلغِي اعتبار الزمن بعد تنزلها، كما أنه لا اعتبار له قبل تنزلها(٣).

يقول ابن بطال: «قد صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فيؤمروا بإثباتها في السورة المكية»(٤).

ويقول السيوطي: «النوع الثالث عشر: ما نزل مفرقا، وما نزل جمعا، والأول غالب القرآن»(٥).

(١) رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم ص(٤٩).
(٢) فهم القرآن الحكيم (١٠٩/٣).
(٣) مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم ص(٥٧).
(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢٣٩/١٠).
(٥) الإتقان في علوم القرآن ص(٨٨).

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، فدونك سورة البقرة، فقد اتفق العلماء على أنها أول ما نزل بالمدينة، وقد امتد نزولها إلى قبيل وفاة النبي ﷺ بليالٍ، حيث نزل آخر ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾(١)(٢).

وهذه سورة آل عمران يمتد نزولها ما بين العام الثاني من الهجرة، حيث نزل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢﴾(٣)(٤)، وبين العام التاسع من الهجرة، حيث نزل قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾(٥) (٦)، فكم كان بين نجوم السورة من فترات تخللتها نجوم ونجوم من سور أخرى، ولا ترى بين آي السورة الواحدة خللا في تنظيم، بل ترى ترتبطا محكما ونسجا متماسكا، تشعر كأن السورة نزلت بين عشية وضحاها.

وتلك سورة النساء امتد زمن نزولها من بعد غزوة أحد حتى يوم الفتح، فقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ٧﴾(٧) نزل بعد غزوة أحد(٨).

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨١.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٨/١٦٠، ٢٠٥).

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢.

(٤) روى ابن حجر العسقلاني في "العجاب في بيان الأسباب" ص(٦٦٥) عن ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشا ببدر وقدم المدينة جمع اليهود في سوق قينقاع، فقال: «**يا معشر اليهود! احذروا من الله ما نزل بقريش يوم بدر، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم**»، فقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ﴾..الآية

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٢.

(٦) نزلت هذه الآية في وفد نجران، وكان قدومهم على النبي ﷺ سنة تسع من الهجرة (الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري ص(٤١٣).

(٧) سورة النساء، من آية: ٧.

(٨) فقد نزلت في أم كُجَّة زوج أوس بن ثابت الأنصاري وبناتها الثلاث، حيث قُتل أوس يوم أحد، وترك لهن مالا، فأخذه ابنا عمه ووصياه، وأبيا أن يعطياهن شيئا، فأتت تشكو =

ويوم الفتح نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾[1][2].

فقد تباعد زمن نزول الآيتين، وتخللهما نجوم سائر السورة الكريمة، مع ما بين الآيات من تسلسل محكم وترابط معجز.

وقد عد العلماء الوحدة الموضوعية للسورة مع اشتمالها على موضوعات شتى، وتفرق نجومها، واختلاف المناسبات التي نزل كل نجم فيها، مع إيفائه للغرض الذي نزل له وبقائه صالحا ما تعاقب الحدثان، عدوا ذلك من وجوه إعجاز القرآن الكريم[3].

وإذ قد ثبت أنه لا ارتباط بين وحدة السورة وبين نزولها جملة أو نزولها نجوما متتابعة، تبيَّن خطأ الجابري في منزعه إذ جعل بعض ما اشتملت عليه السورة من معان دليلا على نزول السورة في مرحلة زمنية من مراحل الدعوة.

لقد كان المستشرق الألماني "نولدكه" في كتابه "تاريخ القرآن" أكثر إنصافا –في محاولته اليائسة إعادة ترتيب سور القرآن الكريم التي باءت بالفشل– من الجابري؛ إذ اعترف بأن من السور ما يضم نجوما نزلت في زمن (مرحلة) لا تنتمي إلى الزمن الذي (المرحلة التي) نزلت فيها السورة، فلم يحاول تغيير وضعها ووضعها في المرحلة التي نزلت

= إلى النبي ﷺ، فدعاهما رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرسا، ولا يحمل كَلاًّ، ولا يُنكي عدوا، فقال رسول الله ﷺ: انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن، فنزلت الآية. أسباب النزول للواحدي ص(١٣٨)، والعجاب في بيان الأسباب لابن حجر (٨٣٤/٢).

(١) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٢) أخرج أبو وليد الأزرقي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ قال: نزلت الآية في عثمان بن طلحة بن أبي طلحة حين قبض النبي ﷺ مفتاح الكعبة، ودخل به الكعبة يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان، فدفع إليه المفتاح، وقال: «**خُذُوهَا يَا بَنِي أَبِي طَلْحَةَ بِأَمَانَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، لَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظَالِمٌ**» قال: وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة خرج وهو يتلو هذه الآية فداه أبي وأمي، ما سمعته يتلوها قبل ذلك». أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار لأبي الوليد الأزرقي (٢٦٥/١)، وانظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١٩/٨).

(٣) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص(١٤٢: ١٦٣)، ط: دار الثقافة– قطر.

فيها؛ لأن تحديد زمن نزولها غير ممكن ومستحيل، ولأنه يؤدي إلى تمزيق السورة تمزيقا شديدا[1].

خامساً: القرآن الكريم تجمعه خصائص عديدة، أبرزها: أن حقائقه ثابتة، وأسلوبه محكم، ومعانيه متشابهة، قد خاطب العقل والوجدان في آن واحد.

هذه الخصائص وغيرها لا تنفك عنها آية من آياته، سواء في ذلك ما نزل أولا، وما نزل بعد.

غاية ما هنالك أن علماء علوم القرآن والتفسير ذكروا وجوها من التمايز بين القرآن المكي والمدني، من حيث الإيجاز والإطناب، والإجمال والتفصيل، والمعاني التي اقتضاها المنهج التربوي، وهي خصائص أغلبية، ولا تعتبر حدودا قاطعة في الفصل بين المكي والمدني، أو المتقدم والمتأخر.

فالقرآن الكريم كله وحدة واحدة، لا يمكن تجزئته، فما يصدق على ما نزل أولا يصدق كذلك على ما نزل آخرا، وما هو صادق على ما نزل آخرا صادق كذلك على ما نزل أولاً، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا ﴾[2]، وقال جل شأنه: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ ﴾[3]، من غير فرق بين المتقدم وبين المتأخر.

ثمة أمر آخر –هو من الوضوح بمكان– أن تلك الخصائص إنما استنبطت بعد نزول الآيات والسور، ومعرفة المتقدم منها من المتأخر، **إذاً هذه الخصائص تابعة لترتيب النزول، وليس من المعقول أن يكون الترتيب خاضعا لها.**

لكن الجابري خالف أدنى درجات المعقول، فجعل ترتيب النزول خاضعا لخصائص التنزيل في كل مرحلة من مراحله، فهو يقرر –بما لا غموض فيه– أنه إذا تعارضت اللوائح التاريخية (أسباب النزول ووقائع السيرة) مع معطيات السورة وخصائصها، وضع السورة في ترتيب يتناسب مع معطياتها[4]، ضاربا بأسباب النزول عرض الحائط، فمثلاً سورة الكوثر، يجعلها الجابري مما نزل في المرحلة الأولى من مراحل

(١) تاريخ القرآن ص (٦٠)، ترجمة: د.جورج تامر.
(٢) سورة الزمر، من الآية: ٢٣.
(٣) سورة هود، الآية: ١.
(٤) مدخل إلى القرآن ص(٢٤٤، ٢٤٥).

التنزيل، لقصرها، فهي أقصر سورة في القرآن الكريم، ولم يلق بالا لما ورد من سبب نزولها، وما اقتضاه من القول بمدنيتها، فعن أنس ﷺ قال: «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: «**أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ**»، **فقرأ**: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ .... » الحديث[1].

فقول أنس ﷺ: "بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا" ظاهر في الدلالة على أن السورة نزلت بالمدينة.

كما أخطأ الجابري في تلك الخصائص المزعومة، فمثلاً:

– جعل سمة قصر الآيات والسور قاصرة على المرحلة الأولى للتنزيل، ثم تتدرج في الطول شيئا فشيئا في المراحل الأخرى؛ وقد أخطأ في ذلك، فسورة "النصر" مدنية باتفاق، وسورة "الكوثر" مدنية على الراجح، وكذلك سورة "البينة" على الأرجح، وهن من قصار السور.

كذلك سورة "الطلاق" و"التحريم" و"الجمعة" سور مدنية باتفاق، وهن دون سورة "القمر" طولاً التي رتَّبَها ضمن سور المرحلة الثانية من مراحل التنزيل، فلِمَ لم يلحقهن بالمرحلة الثانية؟!

– جعل الخطاب القرآني –في أول مراحل الدعوة– موجَّها إلى النبي ﷺ، أو عنه مستندا في ذلك على الخطاب في بعض السور التي نزلت أولا كسورة العلق وسورة المدثر.

والحق: أن الخطاب إلى النبي ﷺ أو عنه ليس خاصا بالعهد المكي بصفة عامة، بله المرحلة الأولى من الدعوة، فقد عجَّ بالخطاب إليه ﷺ أو عنه في العهد المدني، فلا تكاد تجد سورة مدنية إلا وهي مشتملة عليه.

– جعل حديث القرآن عن الآخرة ومشاهدها مما تنزل في المرحلة الثانية، معرضا في ذلك عما روي عن أم المؤمنين عائشة –رضى الله عنها– أنه قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة، حديث رقم (٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن، حديث رقم (٤٩٩٣).

وقد ناقض نفسه؛ حيث جعل سورة "التكوير" مما نزل في المرحلة الأولى، وحديثها يدور حول مشاهد من البعث، وعن ابن عمر –رضي الله عنهما– قال: قال ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ**: "إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ"، و"إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ"، و"إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ"»[1]، فمقتضى صنيع الجابري أن تكون ضمن مجموعة المرحلة الثانية، لكنه دائم التخبط والتناقض.

سادساً: أن استعمال القرآن الكريم للفظة يكون مرتبطا بوفائها بالمعنى المراد، ومناسبتها للسياق الداخلي للسورة، وللغرض الذي سيقت له، والمهم في ذلك أنه لا علاقة لاختيارها بزمن النزول.

وإذا كان الأمر كذلك، تبيَّن خطأ الجابري فيما جعله من خصائص مرحلة ما استعمال بعض الألفاظ، كاستعمال اسم "رب" في المرحلة الأولى للتنزيل، ثم لفظ الجلالة "الله".

كذلك إطلاق اسم "من تزكى"، و"الأتقى"، على أتباع النبي ﷺ في المرحلة الأولى من التنزيل، ثم إطلاق اسم "المسلمين"، و"الذين آمنوا" في المراحل الأخرى.

❁❁❁❁❁

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: ومن سورة "إذا الشمس كورت"، حديث رقم (٣٣٣٣)، وأحمد في المسند (٤/٤٠٦)، حديث رقم (٤٨٠٦)، والحاكم في المستدرك (٤/٦٢٠)، كتاب: الأهوال، حديث رقم= =(٨٧١٩)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي في التلخيص، ورواه السيوطي في الدر المنثور (٨/٤٢٦)، وزاد عزوه إلى ابن المنذر وابن مردويه.

المطلب الثالث: ترتيب سور القرآن الكريم عند المستشرقين وتأثر الجابري بهم

تأتي دراسات المستشرقين لقضايا الفكر الإسلامي بصفة عامة والقضايا القرآنية بصفة خاصة كإحدى حلقات الصراع بين الإسلام وخصومه التي بدأت منذ اللحظة الأولى التي جهر فيها النبي ﷺ بالدعوة، فواجهه أبو لهب –أحد أعمامه ﷺ– بقوله: تبا لك، ألهذا جمعتنا؟

ليتشكل هذا الصراع بما يتلاءم مع كل عصر من العصور في مكونه الثقافي والسياسي والاجتماعي، فتأتي دراسة المستشرقين للقضايا القرآنية في العصر الحديث رافعة شعار الحيادية والموضوعية العلمية، لينخدع به ضعاف الإيمان وقليلو المعرفة، لينفذوا سمومهم في كل قضية طرقوا أبوابها بأن القرآن الكريم من اختلاق محمد ﷺ، وأنه نصٌّ تاريخي، مقيد بأحداث عصره وملابساتِ مكان نزوله، قابل للنقد والرد، فكيف تكون أحكامه وتعاليمه ملزمة على مر العصور؟!

والذي يُعنى به البحث هو إلقاء الضوء على بعض محاولتهم ترتيب سور القرآن الكريم ترتيبا متزامنا مع نزولها، وكشف الأسس التي بنيت عليها تلك المحاولات، ومدى تأثر الجابري بها.

وكانت أبرز تلك المحاولات هي ما قام بها المستشرق الألماني "تيودور نولدكه" (١٨٣٦ – ١٩٣٠م)، في كتابه "تاريخ القرآن"، الذي قسم فيه القرآن المكي إلى ثلاثة مراحل، والقرآن المدني إلى مرحلة واحدة، وجعل كل مرحلة تضم عددا من سور القرآن الكريم، وقد اعتمد في تقسيمه على معيارين:

الأول: المعيار الخارجي، وهو ما يتعلق بأسباب النزول، وأحداث السيرة، والأحاديث النبوية.

الثاني: المعيار الداخلي، وهو ما يتعلق بأسلوب السورة، وما تتضمنه من معان لها ارتباط كبير بالظروف السياسية والدينية المحيطة بالنبي محمد ﷺ، وما قد تشير إليه بعض السور من أحداث تاريخية كبرى، كسورة النجم التي لها علاقة بالهجرة إلى الحبشة، وسورة الروم التي تناولت الحرب بين الفرس والبيزنطيين[1].

(١) تاريخ القرآن لنولدكه ص (٦٤: ٦٦)، دفاع عن القرآن ضد منتقديه ص(١١٨).

وتعتبر محاولة "نولدكه" هي أولى المحاولات الجادة في ترتيب سور القرآن الكريم[١]، وإن كان قد سبقه إليها بعض الباحثين الأوربيين، كما صرح هو بقوله: «ما يزيد الأمر صعوبة هو أنه لم يسبقنا إلى عمل كهذا إلا القليل من الباحثين الأوربيين في مجال الدراسات النقدية للقرآن»[٢].

ومن هؤلاء الذين سبقوه: "جوستاف ڤايل" (١٨٠٨ – ١٨٨٩م) في كتابيه:

"مقدمة تاريخية نقدية للقرآن"، و"النبي محمد: حياته وتعليمه"

وهو من تبنى "نولدكه" مشروعه، وجعله أساسا لدراسته حول تاريخ القرآن[٣].

وقد قسم " ڤايل" القرآن إلى ثلاث مراحل في العهد المكي، ومرحلة واحدة في العهد المدني، ضم تحت كل مرحلة منها عددا من السور، معتمدا في ذلك على ما يحمله النص من معطيات نحو الإشارة إلى أحداث تاريخية كبرى، المظهر الشكلي للتنزيل من طول الآيات والسور وقصرها، وتغيير طابع التنزيل وفقا لتغيير أحوال الدعوة صارفا نظره عن المحيط الخارجي عن النص[٤].

ثم المستشرق الأسكتلندي "وليم موير" (١٨١٩ – ١٩٠٥) في الجزء الثاني من كتابه "حياة محمد وتاريخ الإسلام"[٥].

ثم أتى المستشرق الفرنسي "ريجيس بلاشير" (١٩٠٠ – ١٩٧٣) ليتخذ من مشروع "نولدكه" منطلقا له في إعادة ترتيب السور؛ لأنها –في وجهة نظره– تعطي تصورا معقولا عن السياق التاريخي لمسيرة الدعوة المحمدية[٦]، أما الترتيب القائم الآن فإنه يلقي البلبلة في الفكر؛ إذ إنه لا يعطي التصور الكافي عن نمو الدعوة وتطورها[٧].

---

(١) دفاع عن القرآن ضد منتقديه ص(١١٧)..
(٢) تاريخ القرآن لنولدكه ص (٦٠).
(٣) دفاع عن القرآن ضد منتقديه ص(١١٩)، القرآن وشبهات المستشرقين قراءة نقدية للدكتور عبد الله خضر حمد (٤٣).
(٤) موجز دائرة المعارف الإسلامية (٨٢١٣/٢٦).
(٥) تاريخ القرآن لنولدكه ص (٦٦)، دفاع عن القرآن ضد منتقديه ص(١٢٣).
(٦) القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره لبلاشير ص (٢١، ٤٣).
(٧) القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره لبلاشير ص (٤٣).

فالهدف المنشود عند "ڤايل" و"نولدكه" و"بلاشير"، ومن سار على دربهم هو اتساق التنزيل مع مسار الدعوة، لحصره في نطاق الزمان والمكان الذي نزل فيه.

وقد اتفق "بلاشير" مع سابقه "نولدكه" في تقسيم مراحل الدعوة إلى أربع مراحل: ثلاث في مكة، وواحدة في المدينة، وخالفه في أمرين:

– أنه لم يلقِ بالا بالوثائق التاريخية المتمثلة في المعطيات الخارجية عن النص نحو أسباب النزول وأحداث السيرة[1]، فاقتصر في بناء مشروعه على المعطيات الداخلية للنص، متبعا في ذلك تجربة "ويل"، معتبرا إياها الطريقة الوحيدة المثمرة، أما حياة النبي ﷺ أو سيرته، فإنها تنطوي على معطيات دقيقة، لكنها متناقضة[2].

– أنه عد السور ست عشرة ومائة سورة، بدلا من أربع عشرة ومائة، حيث قسم كلا من سورتي العلق والمدثر إلى قسمين.

لعل هذه هي أبرز محاولات المستشرقين التي تأثر بها الجابري في مشروعه، واستقى من منها هدفه والمعيار الذي بنى عليه، وخلاصة القول في مشروع الجابري أنه أسلمة ما أنتجه المستشرقون في هذا الباب، بتقديمها في صورة مغلفة بغلاف من يؤمن بالقرآن الكريم فيلقى رواجا في العالم الإسلامي

ومن حق القارئ أن يعترض على هذه الخلاصة بأن الجابري نفسه انتقد ما قدمه بلاشير —والذي يعتبر جهده خلاصة جهود من سبقه، خاصة نولدكه– بأنه لا جديد فيه[3].

نعم! لكن اعتراض الجابري لم يكن منصبا حول الهدف من هذا الترتيب أو المعيار الذي اعتمده بلاشير، ولكنه كان على تطبيقه لهذا المنهج وعلى النتائج التي توصل إليها، وبعبارة الجابري: «أما ترتيب السور داخل هذا التحقيب، سواء

(١) آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره دراسة نقدية (٢/٤٩٥).
(٢) القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره ص (٢٤).
(٣) مدخل إلى القرآن ص (٢٤٣).

كمجموعات، أو داخل كل مجموعة على حدة، فلا شيء يفسِّره، فقد جاء اعتباطياً إلى حد كبير»[1].

وأخيراً، هل نجحت محاولات المستشرقين ومن سار على دربهم في إعادة ترتيب سور القرآن الكريم؟

الجواب: لا ، فهذا طرف من شهاداتهم بأنه لا يمكن ترتيب دقيق لسور القرآن الكريم وفق زمن نزولها، يقول "نولدكه": «من المستحيل وضع تسلسل زمني دقيق للسور القديمة، لا بل للسور المكية بأسرها» [2]

وأن كل محاولة لوضع ترتيب زمني لها باءت بالفشل، يقول المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ الدكتور/محمد عمارة: «نشير إلى أن نفرا من المستشرقين اليهود الذين قضوا عقودا من حياتهم في محاولات البحث عن ثغرات يطعنون منها في حفظ القرآن الكريم عن التغيير والتبديل والتحريف، والذين حركتهم على هذا الطريق مقاصد إلحاق القرآن بالكتاب المقدس عند اليهود والنصارى، والتسوية بينهما في التحريف والتغيير والتبديل.

إن نفرا من هؤلاء المستشرقين اليهود قد مكثوا عقودا يحاولون التشكيك في إحكام القرآن وحفظه، وفي تأليف نسخة من القرآن مغايرة لنسخة الإمام، ثم باءت جهودهم هذه بالفشل والخيبة والخذلان، فعدلوا عن هذا الذي صنعه أخيرا الدكتور الجابري.

لقد سجلت ذكر هذه المحاولاتِ وهذه الخيبةِ دائرةُ المعارف الإسلامية التي كتبها المستشرقون الغربيون أنفسهم، فقالت: "لقد هوت محاولات المستشرقين في ثلاثينيات القرن العشرين إصدار نسخة أخرى غير نسخة عثمان"»[3].

ويقول الأستاذ الدكتور/ رضوان السيد الأستاذ بالجامعة اللبنانية في تجربته مع أحد المستشرقين الألمانيين: «عندما ذهبتُ إلى جامعة توبنغن في ألمانيا الاتحادية للدراسة عام

(١) مدخل إلى القرآن ص (٢٤٣)، وينظر: مقال الدكتور عبد الرحمن الحاج، منشور على موقع ملتقى أهل التفسير- شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) :
https://vb.tafsir.net/tafsir١٩٨٠٠/#.XXNdzX_grIU

(٢) تاريخ القرآن لنولدكه ص(٥٧).

(٣) رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم ص (٤٠، ٤١).

١٩٧٣، كان "رودي بارث" أستاذ الدراسات الإسلامية في المعهد الشرقي في الجامعة قد تقاعد، وكان "بارث" قد ترجم القرآن إلى الألمانية في جزء، وخصص جزأين آخرين لكتابة تفسير له بالألمانية أيضا، وأكمل المشروع بكتابة جزء في سيرة النبي ﷺ سمّاه: "محمد والقرآن" -ترجمتُه إلى العربية عام ٢٠٠٨م- المهم أنني رأيتُهُ يوماً في مكتبه القديم في المعهد، وسألتُه مازحاً: لماذا لم تفسّر القرآن على أساس أسباب النزول وترتيب النزول؟ وابتسم قائلاً: ما حاولتُ ذلك، لأن "أوتو برتزل" الألماني، و"ريتشارد بل" البريطاني، قد حاولا ذلك وفشلا.

ودعْك من أسباب النزول، ومن ترتيبات المكي والمدني والناسخ والمنسوخ، فهذه التقسيمات علومٌ ظهرت في ما بعد، ونص القرآن أنصَع من دون أسباب نزول وترتيبات نزول!»[(١)].

فهذه شهادات بعض من سار الجابري على دربهم واعتبر إنتاجهم الثقافي كالهواء لا يمكن الاستغناء عنه – شهادتهم بأن محاولات إعادة ترتيب السور باءت كلها بالفشل.

أقول: سبب فشل هذه المحاولات كونها مبنية على الظن والتخمين، ولم يعتمد شيء منها على دليل قطعي، أرادوا بها دفع ما ثبت بالتواتر وهدم أعظم مقاصد هذا النص، وهو كونه هداية للعالمين.

❁❁❁❁❁

(١) مقال أ.د.رضوان السيد منشور على موقع ملتقى أهل التفسير- شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) :

https://vb.tafsir.net/tafsir١٩٦٩١/#.XdVFGa_grIU

الخـاتمة

أولا: **نتائج البحث**:

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وبمنه تبارك الطيبات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه صلاة وسلاما دائمين، لا ينقطعان أبدا، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــد،،،

فقد عشت في رحاب هذا البحث أشهرا دفاعا عن كتاب الله، أقف على أبعاده، وأجمع مسائله، وأقلب صفحات أمهات المراجع، موصولة بجهود الباحثين الذين عنوا بالدفاع عن كتاب الله، كاشفين مسالكَ أهل الضلالة وأهدافهم، فكان أبرز ما توصلت إليه من نتائج ما يلي:

أولاً: أن ترتيب آيات وسور القرآن الكريم بهذا الشكل بين أيدينا ترتيب توقيفي، وهو يتلاءم مع المقصد الأعظم لنزول القرآن الكريم، وهو كونه هداية عامة للثقلين إلى قيام الساعة، مما يلزم القول بوجوب اتباعه والمحافظة عليه اللهم إلا في مواطن معدودة، كمقام التعبد به، والدرس والتعليم، فلا يتوقف الانتفاع بهديه على ذلك الترتيب.

ثانياً: أن محاولات ترتيب سور القرآن الكريم ترتيبا زمنيا أمر لا يتعدى أن يكون ظنياً، أما السعي للبلوغ به درجة القطع فأمر دونه خرط القتاد.

ثالثا: أن الوقوف على زمن نزول الآيات والسور له جانبان:

أولهما: أنه مهم؛ إذ يعد إحدى أدوات فهم الآيات فهما دقيقاً، والزلل فيه له نتائجه الخطيرة.

ثانيهما: أنه مزلق خطر، لمن تناوله على غير وجهه الصحيح.

رابعاً: أن المدرسة العلمانية في تناولها للقضايا القرآنية عامة سلكت منهجا لا يتلاءم مع خصائص القرآن الكريم، مما أدى إلى وقوعها في كثير من الأخطاء.

خامساً: أن المدرسة العلمانية تعد امتدادا للفكر الاستشراقي بمناهجه ونتائجه.

سادساً: أن الدكتور محمد عابد الجابري أحد من تناول قضية ترتيب سور القرآن الكريم على طريقة المستشرقين، فأخطأ في منهجه، وفي نتائجه.

وأخيراً: لا يسعني في الختام إلا أن أتوجه إلى الله -تعالى- بالدعاء أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن يكتب له القبول والمثوبة أن ينفع به، وأن يجعله في ميزان حسناتي وحسنات والديّ يوم القيامة،،،،، آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليما كثيراً

ثانيا: ثبت بأسماء المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، سنة: ٢٠٠٨م
٢- أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار لأبي الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي، ط: دار الأندلس- بيروت، الثالثة، سنة: ١٩٨٣م.
٣- آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم دراسة نقدية للدكتور أحمد نصر، ط: دار القلم- الرباط، الأولى، سنة: ٢٠٠٩م.
٤- آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره دراسة نقدية للدكتور عمر إبراهيم رضوان، ط: دار طيبة- الرياض، الأولى، سنة: ١٩٩٢م.
٥- الأرجوزة المنبهة على أسماء القراء والرواة لأبي عمرو الداني، ط: دار المغني- الرياض، الأولى، سنة: ١٩٩٩م.
٦- أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره لمحمد مصطفوي، ط: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي- بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠٩م.
٧- أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، ط: دار الكتاب الجديد، الأولى، سنة: ١٩٦٩م.
٨- أسباب النزول، تجديد مفاهيم ورد شبهات للدكتور محمد سالم أبو عاصي، ط: مكتبة الإيمان- القاهرة، الأولى، سنة: ٢٠١٨م.
٩- أسرار ترتيب القرآن للسيوطي، ط: دار الاعتصام، الثانية، سنة: ١٩٧٨م.
١٠- إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي، ط: دار الوفاء- المنصورة، الأولى، سنة: ١٩٩٨م
١١- الانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلاني، ط: دار الفتح- عمان، ودار ابن حزم- بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠١م.

١٢- البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي، د: دار ابن الجوزي- الرياض، الأولى، سنة: ١٤٢٨هـ
١٣- البرهان في علوم القرآن لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ط: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الأولى، سنة: ١٩٥٧م.
١٤- البنيوية النشأة والمفهوم عرض ونقد للدكتور محمد عبد الله بلعفير، بحث منشور بمجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد: ١٥، سنة ٢٠١٧م.
١٥- بيان المعاني لعبد القادر بن ملّا حويش، ط: مطبعة الترقي- دمشق، الأولى، سنة: ١٩٦٥م.
١٦- تاريخ القرآن لأي عبد الله الزنجاني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة- القاهرة.
١٧- تاريخ القرآن لتيودور نولدكه ، ترجمة: د.جورج تامر، ط: بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠٦م، نشر: جورج ألمز- هيلدسهايم- زوريخ- نيويورك.
١٨- تاريخ دمشق لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، ط: دار الفكر- دمشق، سنة: ١٩٩٥م.
١٩- التبيان في آداب حملة القرآن لأبي زكريا محيي الدين يحي بن شرف النووي، ط: دار ابن حزم- بيروت.
٢٠- التراث والحداثة للدكتور محمد عابد الجابري ط: مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٩١م.
٢١- ترتيب آيات وسور القرآن الكريم، دراسة في علوم القرآن وعلوم الحديث، للدكتور محمد أبو زيد، والدكتور عمر محمد الفرماوي - منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمياط- جامعة الأزهر، العدد الخامس، سنة: ٢٠١٧م.

٢٢- ترتيب سور القرآن الكريم للدكتور طه عابدين طه- منشور بمجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد التاسع.
٢٣- التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة، ط: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، الأولى، سنة: ١٩٦٤م.
٢٤- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الثالثة، ١٤٢٠هـ
٢٥- التفسير الماركسي للإسلام للدكتور محمد عمارة، ط: دار الشروق- القاهرة، الأولى، سنة: ١٩٩٦م.
٢٦- تفسير المظهري للقاضي محمد ثناء الله العثماني المظهري، ط: مكتبة الرشدية – باكستان، سنة: ١٤١٢هـ.
٢٧- تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ط: دار الرشيد- سوريا، الثالثة، سنة: ١٩٩١م.
٢٨- تكوين العقل العربي للدكتور محمد عابد الجابري، ط: مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت، العاشرة، سنة: ٢٠٠٩م.
٢٩- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ط: مطبعة دائرة المعارف النظامية- الهند، الأولى، سنة: ١٣٢٦
٣٠- جامع البيان في تأويل القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠٠م.
٣١- جمع الجوامع في أصول الفقه لتاج الدين السبكي، ط: دار الكتب العلمية، الثانية، سنة: ٢٠٠٣م.
٣٢- حاشية الطيبي على الكشاف: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، ط: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الأولى، سنة: ٢٠١٣م.

٣٣- حفريات في الذاكرة من بعيد للدكتور محمد عابد الجابري، ط: مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٩٧م..
٣٤- خطر النزعة التاريخية على الموروث الديني للدكتور محمد عمارة، ط: مكتبة وهبة- القاهرة.
٣٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط: دار الفكر – بيروت.
٣٦- دفاع عن القرآن ضد منتقديه للدكتور عبد الرحمن بدوي، ط: الدار العالمية.
٣٧- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، سنة: ١٩٨٨م.
٣٨- الدين والدولة وتطبيق الشريعة للدكتور محمد عابد الجابري، ط: مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٩٦م.
٣٩- الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري دار الهلال– بيروت، الأولى.
٤٠- رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم للدكتور محمد عمارة، ط: دار السلام- القاهرة، الأولى، سنة: ٢٠١١م.
٤١- رعاية المصلحة لنجم الدين الطوفي، ط: الدار المصرية اللبنانية، الأولى، سنة: ١٩٩٣.
٤٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله ل الألوسي ، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٥هـ.
٤٣- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية- الكويت، السابعة والعشرون، سنة: ١٩٩٤م
٤٤- سقوط الغلو العلماني للدكتور محمد عمارة ط: دار الشروق- القاهرة، الثانية، سنة: ٢٠٠٢م.

٤٥- سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ط: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
٤٦- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، ط: مصطفى البابي الحلبي – مصر، الثانية، سنة: ١٩٧٥م.
٤٧- الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن لعبد السلام البكاري، والصديق بو علام، ط: الدار العربية للعلوم- الرباط، الأولى، سنة: ٢٠٠٩م.
٤٨- شرح صحيح البخاري لابن بطال أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، ط: مكتبة الرشد – السعودية، الثانية، سنة: ٢٠٠٣م.
٤٩- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان لأبي حاتم محمد بن حبان الدارمي، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت، الثانية، سنة: ١٩٩٣م.
٥٠- صحيح البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه لأبي عبد الله البخاري، ط: دار طوق النجاة، الأولى، سنة: ١٤٢٢هـ.
٥١- ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية للدكتور رمضان البوطي، ط: مؤسسة الرسالة.
٥٢- الطبقات الكبرى لأبي عبد الله محمد بن سعد، ط: دار صادر – بيروت، الأولى، سنة: ١٩٦٨هـ.
٥٣- العجاب في بيان الأسباب لابن حجر العسقلاني، ط: دار ابن حزم- بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠٢م.
٥٤- علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره للدكتور أحمد خالد شكري، والأستاذ عمران سميح نزال ط: جمعية المحافظة على القرآن الكريم- الأردن، الأولى، سنة: ٢٠٠٣م.

٥٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ط: دار المعرفة – بيروت، سنة: ١٣٧٩

٥٦- فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة لأبي عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس، ط: دار الفكر- دمشق، الأولى، سنة: ١٩٨٧م.

٥٧- الفكر المقاصدي قواعده وفوائده للدكتور أحمد الريسوني، ط: جريدة الزمن– الرباط، سنة: ١٩٩٩م.

٥٨- في ظلال القرآن لسيد قطب، ط: دار الشروق- القاهرة، الثانية والثلاثون، سنة: ٢٠٠٣م.

٥٩- قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي للدكتور محمد عمارة، ط: دار الشروق- القاهرة، الأولى، سنة: ٢٠٠٦م.

٦٠- القرآن وشبهات المستشرقين قراءة نقدية للدكتور عبد الله خضر، ط: دار الكتب العلمية- بيروت.

٦١- القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره لبلاشير، ترجمة: رضا سعادة، ط: دار الكتاب اللبناني- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٧٤م.

٦٢- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لجار الله أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري، ط: العبيكان- الرياض، الأولى، سنة: ١٩٩٨م.

٦٣- مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم، ط: دار القلم- مشق، الثالثة، سنة: ٢٠٠٠م.

٦٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٤٢٢هـ.

٦٥- مدخل إلى القرآن ط: مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠٦م.

٦٦- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، سنة: ١٩٩٠م.
٦٧- المستصفى في علم أصول الفقه لأبي حامد الغزالي، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، سنة: ١٩٩٣م.
٦٨- مسند أبي داود الطيالسي لأبي داود سليمان بن داود بن الجارود، ط: دار هجر – مصر.
٦٩- المسند للإمام أحمد بن حنبل، ط: دار الحديث- القاهرة، الأولى، سنة: ١٩٩٥م.
٧٠- مشروع النهضة بين الإسلام والعلمانية دراسة في فكر محمد عمارة ومحمد عابد الجابري (رسالة دكتوراه) للدكتور محمد علي أبو هندي، ط: دار السلام، الأولى، سنة: ٢٠١٠م.
٧١- المصاحف لابن أبي داود السجستاني، ط: الفاروق الحديثة – القاهرة، الأولى، سنة: ٢٠٠٢م.
٧٢- معارج التفكر ودقائق التدبر لعبد الرحمن حسن حبنكة، ط: دار القلم- دمشق، الأولى، سنة: ٢٠٠٠م.
٧٣- معالم التنزيل في تفسير القرآن لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، الأولى، سنة: ١٤٢٠هـ.
٧٤- المعجم الأوسط لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ط: دار الحرمين – القاهرة.
٧٥- المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ط: مكتبة ابن تيمية – القاهرة.
٧٦- مقالتان في التأويل للدكتور محمد سالم أبو عاصي، ط: دار الفارابي، الأولى، سنة: ٢٠١٠م.

٧٧- مناهل العرفان لمحمد عبد العظيم الزُّرْقاني، ط: عيسى البابي الحلبي، الثالثة.
٧٨- الموافقات في أصول الشريعة لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، ط: دار ابن عفان، الأولى، سنة: ١٩٩٧م
٧٩- موجز دائرة المعارف الإسلامية، ط: مركز الشارقة للإبداع، الأولى، سنة: ١٩٩٨م.
٨٠- الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من العلماء والأكاديمين السوفيتيين، إشراف روزنتال، يودين، ترجمة سمير كرم
٨١- الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٩٩١م.
٨٢- النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز، ط: دار الثقافة- قطر.
٨٣- نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، للدكتور محمد عابد الجابري، ط: المركز الثقافي العربي، السادسة، سنة: ١٩٩٣م.
٨٤- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ط: دار الكتاب الإسلامي- القاهرة.
٨٥- النقد الفني لمشروع ترتيب القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز (مقال) نشر في مجلة كنوز الفرقان، العددين: الأول والثاني، السنة الرابعة، ط: مكتبة الإمام البخاري- الإسماعيلية، الأولى، سنة: ٢٠٠٥م.
٨٦- النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد الشهير بالماوردي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت.

❁❁❁❁❁